الرسالة السابعة

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

[البقرة : ٤٢]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل قد خلق الخلق من الجن والإنس لغاية عظيمة شريفة ألا وهي عبادته سبحانه وتوحيده والإخلاص له وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن أجل ذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وزود عباده بالعقول التي تميز الخير من الشر، والحق من الباطل ، وتكفل سبحانه بالعون والتوفيق لمن أراد الهدى والحق ، فدله عليه ، ورزقه الانقياد له ، وتخلى عمن أعرض عن الحق فلم يقبل به ، ولم يستسلم ويخضع له ، وكل هذا من الابتلاء الذي خلق الله سبحانه الموت والحياة من أجله ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ [الملك: ٢] .

وانقسم الناس إثر ذلك إلى مؤمنين موحدين مدركين للغاية التي من أجلها خلقوا ، فصارت دوافعهم كلها في مرضات الله سبحانه ، وسخروا كل ما آتاهم الله من هذه الدنيا لخدمة هذه الغاية الشريفة لنيل مرضات الله

سبحانه وتعالى ، فعملوا للآخرة والفوز برضوان الله والجنة .

ومن الناس من أمضى حياته في اللهو واللعب وإيثار الحياة الدنيا ، وجعل هذه الدنيا همه وغايته واتبع هواه فخسر الدنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

ثم إن الفئة المؤمنة لم تسلم كذلك من الفتن ، وكيف يكون ذلك وعدوها الشيطان الرجيم متربص بها لا يفتؤ يضلها ويزين لها ويخدعها ؛ يقول الله عز وجل عن إبليس اللعين : ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقال تعالى عنه : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وإن من أعظم الفتن التي يفتن الشيطان بها العباد، فتنة التزيين ولبس الحق بالباطل واتباع الهوى في ذلك ، ولقد وقع في هذا الشَرَك الخطير كثير من الناس وبخاصة في زماننا هذا ؛ زمان الفتن التي تموج موج البحر ، وزمان الخداع والنفاق والدجل والرياء !

نعم إننا في زمان اشتدت فيه غربة الإسلام ، والتبس فيه الحق بالباطل ، وضُلل كثير من الناس ، وتمكن الشيطان من كثير من الناس تمكناً يظنون معه أنهم بمنأى عن عدوهم الشيطان ، وعلى صلة وثيقة بربهم سبحانه، وما ذلك إلا بسبب التباس الحق بالباطل، والعلم بالجهل ، والحبيب بالعدو .

وتعاون شياطين الجن والإنس ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام: ١١٢] ، فتعاونوا في وضع هذا التلبيس في قوالب من الأقوال مزخرفة ، وألفاظ خادعة ، وتسمية للأشياء بغير مسمياتها ؛ فضلّ بسبب ذلك كثير من الناس ، والعاقل منهم وقف حائراً لا يدري أين وجه الحق فيما يسمع ويرى من التناقضات وتبرير المواقف المخالفة للشريعة بسبب استيلاء الهوى على النفوس، واستيلاء الشهوات على القلوب .

ولما كان من غير المستطاع المجاهرة برد الشريعة ورفضها ، فكان لابد لهم من ليٍّ أعناق النصوص من الآيات والأحاديث؛ لتبرير تلك المواقف المنحرفة، وهي ليست لها ، ولو أن الذي يقع في الانحراف يعترف بذنبه وخطئه وضعفه في مخالفة الشريعة ؛ لكان الأمر أهون .

وكذلك لو أنه استدل بدليل في غير محله ولما نُبِّه إلى هذا الخطأ في الاستدلال رجع واعترف لكان هذا أيضاً أهون ،ولكن المصيبة أن يصرّ هذا المؤول الذي حرّف الأدلة على باطله ليجد لعمله مخرجاً وشرعية ؛ فيكابر بعد بيان الحق له ، ويغالط نفسه والمسلمين بصنيعه هذا .

وإننا في زماننا هذا لنرى صوراً كثيرة من لبس الحق بالباطل ، وصوراً كثيرة من المغالطات والخداع والحيل المحرمة المفتراة على شرع الله عز وجل ، فكان لزاماً على الدعاة المصلحين أن يحذروا بأنفسهم من الوقوع في هذا المزلق ، وأن يكشفوه للناس إذا وقع من غيرهم ولا يدعوهم لأهل الأهواء يلبسون عليهم دينهم،ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من الفتن والتضليل .

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة الجديدة من رسائل وقفات تربوية في

ضوء القرآن الكريم ؛ لمعالجة هذا الموضوع المهم ، وقد اخترت عنواناً لها قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** ﴾ ، وهي جزء من آيتين كريمتين : وردت إحداهما في سورة البقرة ، آية (٤٢) ، عند قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ ، والأخرى في سورة آل عمران ، آية (٧١) عند قوله تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ .

وهاتان الآيتان وإن كانتا قد نزلتا في أهل الكتاب ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر عند أهل الأصول ، فكل من كتم الحق وخلطه بالباطل وهو يعلم فهو من أهل هذه الآية .

ولذلك سوف لا أتطرق لمحاولات أهل الكتاب ولا أصحاب الملل الكافرة في لبس الحق بالباطل ومغالطاتهم في ذلك ، وإنما سينصب جلّ البحث على واقعنا المسلم الذي نعيش فيه وندعو إلى الله فيه ، محاولاً كشف بعض الصور التي التبس فيها الحق بالباطل ، والتي يقع فيها بعض المنتسبين لهذا الدين من المنافقين وضعاف الإيمان لتبرير الانحراف أو التهوين منه والرضا به وإقراره ، بل إن بعض الطيبين من دعاة وطلاب علم قد تأثروا بأولئك الملبسين ؛ فصاروا يرددون بعض ما يقولون بعلم أو بغير علم .

وقد قسمت الموضوع إلى المباحث التالية :

١ ـ أهمية الموضوع .

٢ ـ تعريفات .

٣ ـ أسباب التباس الحق بالباطل .

٤ ـ صور من لبس الحق بالباطل .

٥ ـ الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل .

٦ ـ خاتمة .

أسأل الله عز وجل أن ينفع به ويحسن القصد فيه ، إنه سميع مجيب .

* * *

المبحث الأول
أهمية الموضوع

إن لدراسة موضوع التباس الحق بالباطل أهمية كبيرة؛ لما ينتج عن هذا التلبيس من خلط وضلال وفتنة، يكون لها الأثر السيئ والضرر البالغ في تضليل الأمة، وتحريف الحقائق، وتزوير الأحداث .

وإن أهمية هذا الموضوع تكمن في أمور منها :

١ ـ من المعلوم أن القيام بالعبودية الحقة لله عز وجل لا تتم إلا بالإخلاص له سبحانه في عبادته ، وأن تكون العبادة على بصيرة واتباع لما جاء به الرسول ﷺ ، وإن البصيرة في الدين لا تتحقق ما دام الباطل ملتبساً بالحق، وبمعنى آخر ؛ فإن البصيرة في الدين لا تحصل إلا بوضوح الحق وتنقيته من الباطل الملتبس به ، قال تعالى : ﴿ **قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ﴾ [يونس: ٣٢] .

لذا كان لزاماً على العبد أن يعرف الحق بدليله ما أمكن، وأن يزيل عنه الباطل الذي علق به ، وذلك حتى يأتي بالعبادة على وجهها المقبول عند الله عز وجل .

٢ ـ كثرة اللبس والتضليل في عصرنا الحاضر ؛ حيث ظهرت وسائل ماكرة ومضللة لبَّست على الناس دينهم وخلطت الحق بالباطل ، بل وصل الأمر لدرجة قلب الحقائق، وإظهار الحق في صورة الباطل ، والباطل في

صورة الحق ، وبالذات ما تقوم به وسائل الإعلام المختلفة في ديار المسلمين من إذاعة وتلفاز وكتاب ومجلة . . . إلخ ، وما تمكر به في الليل والنهار في محاولة لطمس الحق وتشويهه ، وتشويه حملته والداعين إليه ، فكان لابد من إزالة هذا اللبس الذي خيّم على الأمة ، وكان لابد من إحقاق الحق وإبطال الباطل بقدر الجهد المستطاع ، والاستعانة بالله عز وجل في ذلك ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال : ٨] .

٣ ـ وفي مقابل هذه الكثرة الكاثرة من تلبيس الحقائق وخلطها بالباطل ، كان هناك سكوت مزعج من كثير من العلماء وطلبة العلم في ديار المسلمين أمام كثير من المستجدات والنوازل التي تبحث الأمة عن الموقف الشرعي إزاءها ، وعن وجه الحق فيها ، ووقفت حائرة تنتظر كلام أهل العلم فيها ، فلم تسمع لهم حساً ، وتلقفها أصحاب القلوب المريضة في غيبة العلماء فلبسوا عليها أمرها ، وتكلمت الرويبضات في أمر العامة ، فلبسوا الحق بالباطل ، فإلى الله المشتكى مما حل بأمتنا ، وعلماؤها يعيشون بين ظهرانيها .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وياليت الأمر وقف عند حد السكوت ، بل قد وجدنا من بعض المنتسبين للعلم مَنْ يسهم في هذا التلبيس بنفسه ، والله أعلم بقصده وبنيته ، فتراه يسمي الأمور بغير مسمياتها ، وينزل النوازل في غير مناطاتها ، بل قد يثني على المبطلين المضللين مما يظهرهم في أعين الناس والعامة أهل حق وإصلاح .

وفي نفس الوقت يوجه سهامه وعداوته للصالحين المصلحين المجاهدين من أبناء هذه الأمة الذين أقلقهم حال أمتهم الذي يرثى له ، وأقض

مضاجعهم ضياع الحق بين جهل العامة وعجز العلماء ، فرأوا أن الأمر أصبح فرض عين ولا خيار فيه ، فقالوا كلمة الحق وأخذوا في تعرية الباطل وتمييزه من الحق ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٧] .

ولأن الصراع بين الحق والباطل قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فإن الشيطان أجلب عليهم بخيله ورجله ، بل قد أوقع بعض الطيبين في شركه ؛ فأغراهم بهؤلاء المصلحين وصورهم في أعين الناس أنهم دعاة فتنة وبلبلة وإرهاب ، وهذه سنة الله عز وجل في أنبيائه ودعاته المصلحين ، نسأل الله عز وجل الهداية للملبسين المخذلين ، كما نسأله سبحانه الثبات للمصلحين المجاهدين .

٤ ـ لابد من تعرية الباطل وأهله ، وما دام أن الحق مختلط بالباطل وسبيل المجرمين لم يتميز عن سبيل المؤمنين ؛ فإن أمر هذا الدين سيبقى مشوهاً عند الناس ، وسيبقى الالتباس فيه قائماً ، مما يؤدي إلى ظهور الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق ؛ عياذاً بالله من ذلك .

كما أن استبانة سبيل المجرمين ومناهجهم تساعد في تميز الصف المؤمن وتنقيته من شوائب النفاق والمنافقين ، وهذا أمر مهم وعامل أساس لإظهار الحق وإزهاق الباطل : ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال: ٤٢] ، والناس في معرفة الحق والباطل واستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين يتفاوتون تفاوتاً كبيراً يوضح هذا التفاوت الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٥] ، حيث يقول :

« والناس في هذا الموضع أربع فرق :

الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً ؛ وهؤلاء أعلم الخلق .

الفرقة الثانية : من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك .

الفرقة الثالثة : من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها ؛ فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة ، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل ، وإن لم يتصوره على التفصيل ، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه ، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات ، فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها ، وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى :

الفرقة الرابعة : فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة ، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع؛ فعرفها على التفصيل ، ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك ، بل عرفه معرفة مجملة ، وإن تفصلت له في بعض الأشياء ، ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً ، وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار ، يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تعرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك، وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار مالا يعلمه إلا الله؛ من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم»[1].

٥ ـ تترس الطواغيت ودعاة العلمنة والتحرر من الدين في بلدان المسلمين ببعض الشبه الشرعية، والتي يلبسون بها على الناس في تبرير فسادهم وإضفاء الشرعية على ظلمهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾. [البقرة: ١١، ١٢]

وكذلك بما يقومون به من تشويه لصورة المصلحين في هذه الأمة، وأنهم دعاة فتنة وأغراض شخصية ودعاة إرهاب وقلاقل، كل ذلك من لبس الحق بالباطل الذي ينبغي كشفه وتعريته، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى.

٦ ـ ظهور بعض المغالطات عند كثير منا واستخدامها في تبرير المواقف الخاطئة، والمخالفات الشرعية ـ سواء كانت فردية أم جماعية ـ ينبثق عنها مواقف وممارسات خاطئة تلبس على الناس أمرهم ويحسبون أنها الحق؛ لأنها تصدر من أناس طيبين ودعاة صالحين.

---

(١) الفوائد ١٠٩ ـ ١١١.

ومنشؤ هذه المغالطات في الغالب شهوة مُزجت بشبهة فتولد عنها مغالطة، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى .

* * *

المبحث الثاني
تعريفات

يحسن بنا قبل الدخول في ثنايا الموضوع أن نلم بتعريفات عامة لبعض المصطلحات التي ينطلق منها هذا البحث ، والتي سيكثر إيرادها في صلب الموضوع ، وأهمها ما يلي :

١ ـ اللبس والتلبيس .

٢ ـ الأغاليط (المغالطات) .

أولاً : تعريف اللبس والتلبيس :

قال في لسان العرب : اللَّبْس والتلبيس : اختلاط الأمر . لبس عليه الأمر يلبسه لبْساً فالتبس ، إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته . والتبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه .

والتلبيس : كالتدليس والتخليط ؛ شدد للمبالغة ، وربما شدد للتكثير .

يقال : لَبستُ الأمر على القوم ألْبِسُه لبساً، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلاً » اهـ . باختصار .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : « التلبيس: إظهار الباطل في صورة الحق»[1] اهـ.

---

(١) تلبيس إبليس ص٣٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به، لزم أن يكتم الحق الذي يبين أنه باطل ؛ إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق»[١] اهـ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية أيضاً :

« نهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التلبيس ، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره ؛ فكذلك الحق إذا لُبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق ، وتكلم بلفظ له معنيان : معنى صحيح ، ومعنى باطل ، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ، ومراده الباطل ، فهذا من الإجمال في اللفظ »[٢] اهـ .

وقال الرازي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ :

« أمر بترك الإغواء والإضلال . واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها، فقوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه ، وقوله :

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦).

﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل . واعلم أن الأظهر في الباء التي في قوله : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ أنها باء الاستعانة كالتي في قولك : كتبت بالقلم.

والمعنى: ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردونها على السامعين؛ وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والإنجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال ، ثم بأنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشبهات ؛ فهذا هو المراد بقوله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ وهو المذكور في قوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] .

أما قوله : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم يوم القيامة؛ وذلك لأن ذلك التلبيس صار صارفاً للخلق عن قبول الحق إلى يوم القيامة ، وداعياً لهم إلى الاستمرار على الباطل إلى يوم القيامة ، ولا شك في أن موقعه عظيم ، وهذا الخطاب وإن ورد فيهم فهو تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله ، فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى»[1] اهـ.

ثانياً : تعريف الأغاليط «المغالطات» :

قال في لسان العرب : « المغْلَطَة والأغلوطة : ما يغالط به من المسائل ، والجمع : الأغاليط ، وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن الأغلوطات. قال الهروي: وأراد بها المسائل التي يُغالَط بها العلماءُ ليزلوا فيهيج بذلك شر

(١) التفسير الكبير (٣/ ٤٠، ٤١) .

وفتنة ، وإنما نهى عنها لأنها غير نافعة في الدين ، ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه : « أنذرتكم صعاب المنطق » يريد المسائل الدقيقة الغامضة »اهـ.

وقد أخرج أبو داود رحمه الله في سننه عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات[١] .

وقد ضعف الألباني الحديث ، وقال في شرح الأغلوطات : بأنها المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فتهيج بذلك الشر والفتنة[٢] .

وروى الإمامان : البخاري ومسلم حديث حذيفة المشهور في الفتن ، وفيه قول حذيفة : « إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط »[٣] .

قال في الشرح : الأغاليط : جمع أغلوطة ، وهي المسائل التي يغلط فيها ، والأحاديث التي تذكر للتكذيب .

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم عند شرحه للحديث التاسع من أحاديث الأربعين النووية قوله :

« وقال الحسن البصري : شر عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله .

---

(١) أخرجه أبو داود ـ كتاب العلم (٨) ، باب التوقي في الفتيا (٣٦٥٦) (٤/ ٦٥) ، وأحمد في المسند (٥/ ٤٣٥) .

(٢) انظر تمام المنة ص٤٥ ، وضعيف أبي داود رقم ٧٩١ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري ـ كتاب المواقيت (٤)، باب : الصبر كفارة (ح٥٢٥) [فتح الباري : ٢/ ١١] ، وأخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (٦٥) ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريباً . . . (ح١٤٤) (١/ ١٢٨).

وقال الأوزاعي : إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة فإن غُيِّرت يوماً قيل : هذا منكر ،قالوا : ومتى ذلك ، قال : إذا قلّت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم، وتُفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »[1] اهـ .

والحاصل مما ذكر أن المغاليط أو المغالطات هي التي يثيرها المغالطون من صعاب المسائل ، أو المسائل التي لم تقع ولا يترتب عليها عمل ؛ وذلك ليغالطوا بها العلماء ليزلوا فيعموا بها العباد ، ويهيج من ذلك شر وفتنة وتلبيس على الناس .

* * *

(١) جامع العلوم والحكم ص١٤٢ .

المبحث الثالث
أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل

إن الانحراف عن الحق والوقوع فيما يضاده لا تعدو أسبابه الفتن التالية :

١ ـ فتنة الشبهات .

٢ ـ فتنة الشهوات .

٣ ـ فتنة الجمع بين الشبهة والشهوة « لبس الحق بالباطل » .

وكل انحراف أو ضلال أو خطأ ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ لا يخرج في دوافعه عن الأسباب السابقة ؛ فإذا وقع العبد في مخالفة شرعية ، فإما أن يكون السبب في هذه المخالفة هو الجهل بها ، وعدم العلم بحرمتها أو اشتبه الأمر عليه فحسبها مكروهة فقط ؛ فهذا الخطأ سببه الشبهة الناتجة عن قلة العلم ، وضعف البصيرة .

وأما إذا كان لدى العبد الواقع في المخالفة علم وبصيرة من دين الله أنها محرمة ومخالفة للشرع ، ومع ذلك وقع فيها عمداً ، فإن السبب الدافع لهذه المخالفة إنما هو الشهوة وضعف النفس ، ومثل هذا يقرّ ويعترف بمخالفته ومجانبته للصواب كما يعترف بذنبه وتقصيره .

وهناك شخص آخر قد لا يعترف بذنبه وتقصيره وإنما نراه وقد راح يبحث عن شبهة في دليل وتفسير خاطئ ، أو تأويل متعسف للأدلة ليبرر بها

خطأه، ويمرر بها ضعفه وشهوته مع علمه بخطأ تصرفه هذا في قرارة نفسه ، فهذا هو الهوى ، وهذه هي المغالطة ، وهذا هو لبس الحق بالباطل ، وهو أشنع أنواع الانحراف؛ لأنه مكر وتحايل على شرع الله وخداع للناس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفتنة نوعان : النوع الأول فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات . وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بإحداهما .

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولاسيما إذا اقترَن بذلك فسادُ القصد ، وحصولُ الهوَى ، فهنالك الفتنة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سَيئ القصد، الحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ﷺ ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُس**﴾ .

[النجم: ٢٣]

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله ، فقال : ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦] .

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع، على حسب مراتب بدعهم ، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من

حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع ، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة .

وأما النوع الثاني من الفتنة : ففتنة الشهوات :

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله : ﴿ **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ** ﴾ [التوبة: ٦٩]، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها . والخلاقُ هو النَّصيبُ المقدر ، ثم قال : ﴿ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** ﴾ فهذا الخوض بالباطل ، وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان ، من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها ، والثاني : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثاني : من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه[1] .

وإن أشد وأشر هذه الفتن من جمع بين الشبهة والشهوة ، وتحايل على شرع الله بأن غطى مخالفته وانحرافه بتأويل غير سائغ أو بشبهة دليل ، وهو يعلم أنه متحايل ومخادع .

ومثل هؤلاء الملبسين عقوبتهم عند الله عز وجل أشد من الذين يقعون في

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

المخالفات الشرعية ، ولكنهم يعترفون بتقصيرهم وذنوبهم ولا يكابرون ويبررون، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كلامه عن تحريم الحيل ، وكيف أن اليهود تحايلوا على الصيد يوم السبت، فقال :

« قال شيخنا[1] : وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى ، وإنما فعلوا ذلك تأويلاً واحتيالاً ظاهره ظاهر الاتقاء، وحقيقته حقيقة الاعتداء ، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة ؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة .

فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته؛ مسخهم الله قردة تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة ، جزاءً وفاقاً .

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل ، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه ، ولم يعاقب أولئك بالمسخ كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة ؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً كانت عقوبتهم أعظم، فإنهم بمنزلة المنافقين ؛ يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب ، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم ، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالماً بتحريمه ، فإنه يقترن بمعصيته اعترافُه بالتحريم ، وخشيته لله ، واستغفاره وتوبته يوماً ما ، واعترافه بأنه مذنب عاص ، وانكسار قلبه من ذل المعصية ، وازدراؤه على نفسه ، ورجاؤه لمغفرة ربه له ، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين ، وهذا كله إيمان يفضي بصاحبه إلى خير ، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله .

(١) يقصد شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل ، فقال : « **لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل** »[١] ، وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية ـ أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها ـ نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »[٢] اهـ .

وهذا هو حقيقة لبس الحق بالباطل وحقيقة المغالطة ؛ إذ إن الدافع الحقيقي للانحراف هو الهوى والشهوة وحب الدنيا ، ولكن بدلاً من أن يعترف بضعفه هذا وشهوته ويقر بذنبه في مخالفته للشريعة ، فإنه يستدل لشهوته هذه بشبهة أدلة شرعية يعلم هو في قرارة نفسه أنها غير صالحة للاستدلال ، لكن هواه يوحي إليه أنه لابد من غطاء يغطي به هذا الضعف والهوى .

❁ ❁ ❁

(١) ذكره ابن كثير في التفسير ، وجود إسناده (٣/ ٤٩٢) طبعة دار الشعب .
(٢) أعلام الموقعين (٣/ ١٦٣) .

وسائل لبس الحق بالباطل

وإذا ذهبنا نتعرف على وسائل التلبيس والطرق التي يمارس بها لوجدناها لا تخرج في الغالب عن الأمور التالية :

١ ـ التأويل الفاسد واتباع المتشابه .

٢ ـ كتمان الحق وإخفاؤه .

٣ ـ تحريف الأدلة عن مواضعها ، وعدم إنزالها في مناطاتها .

وتفصيل ذلك فيما يلي :

١ـ التأويل الفاسد واتباع المتشابه :

ويقصد بالتأويل هنا التأويل الفاسد الذي لم يدل عليه دليل يصرفه عن المعنى الظاهر، والذي هو أشبه بتحريف الكلم ، والغالب أن الذي يدفع إليه الجهل والهوى .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو التأويل الذي لم يُرِدْه الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها ، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل ؟

والمتأولون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل ، وبحسب

قصور أفهامهم ووفورها ، وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل من فسد قصده وفهمه ؛ فكلما ساء قصده وفهمه ؛ كان تأويله أشد انحرافاً .

فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة ، بل يكون على بصيرة من الحق ، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق ، ومنهم من يجتمع له الأمران : الهوى في القصد ، والشبهة في العلم . . .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بـ (الكشف عن مناهج الأدلة) ـ وقد ذكر التأويل وجنايته على الشريعة ـ فقال : ومثال من أوَّل شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع ـ مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم ، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاج كان به ، ليس يعرض إلا للأقل من الناس ، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة لم يرد به ذلك الدواء العام ، الذي جرت العادة في اللسان أن يُدَلَّ بذلك الاسم عليه ، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة ، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم ، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيب ، وقال للناس : هذا هو الذي قصده الطبيب الأول ، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول ، ففسدت أمزجة كثير من الناس .

فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب ؛ فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول ؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول ، فجاء ثالث فتأول في

أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني ، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين ، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة ؛ فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة ، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم ، وسلط الناسُ التأويلَ على أدويته ، وغيروها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى ، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس ، وهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة »[١] اهـ .

ويقول الإمام ابن القيم أيضاً :

« كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه ، وفي خبره وإلزامه ؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات ، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات ، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ، ولا سيما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب ، وينطمس وجه الحق»[٢] اهـ .

وعن اتباع المتشابه يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧] :

« وذلك أن هذه الآية شملت قسمين ، هما أصل المشي على طريق

(١) أعلام الموقعين (٤/ ٣٥٣) .
(٢) الفوائد ص ١١٠ .

الصواب ، أو على طريق الخطأ :

أحدهما : الراسخون في العلم ، وهم الثابتو الأقدام في علم الشريعة ، ولما كان ذلك متعذراً إلا على مَن حَصَّل الأمرين المتقدمين[1] ؛ لم يكن بد من المعرفة بهما معاً على حسب ما تعطيه المِنَّة الإنسانية ، وإذ ذاك يطلق عليه أنه راسخ في العلم ، ومقتضى الآية مدحه ، فهو إذاً أهل للهداية والاستنباط .

وحين خصَّ أهل الزيغ باتباع المتشابه ، دل التخصيص على أن الراسخين لا يتَّبعونه ، فإذاً لا يتبعون إلا المحكم ، وهو أم الكتاب ومعظمه .

فكلُّ دليل خاص أو عام شهد له معظم الشريعة ، فهو الدليل الصحيح وما سواه فاسد ؛ إذ ليس بين الصحيح والفاسد واسطة في الأدلة يستند إليها ، إذ لو كان ثم ثالث ؛ لنصت عليه الآية .

ثم لما خُص الزائغون بكونهم يتبعون المتشابه أيضاً ، علم أن الراسخين لا يتَّبعونه ، فإن تأولوه ؛ فبالرد إلى المحكم ، بأن أمكن حمله على المحكم بمقتضى القواعد ، فهذا المتشابه الإضافي لا الحقيقي ، وليس في الآية نص على حكمه بالنسبة إلى الراسخين ، فليرجع عندهم إلى المحكم الذي هو أم الكتاب .

وإن لم يتأولوه ؛ فبناء على أنه متشابه حقيقي ، فيقابلونه بالتسليم ، وقولهم : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

---

(١) وهما الرسوخ في معرفة كلام العرب والعلم بمقاصدها ، والرسوخ في العلم بقواعد الأصول التي من جهتها تستنبط الأحكام .

وكذلك ذكر في أهل الزيغ أنهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ، فهم يطلبون به أهواءهم لحصول الفتنة ، فليس نظرهم إذاً في الدليل نظر المستبصر حتى يكون هواه تحت حكمه ، بل نظر من حكّم الهوى ثم أتى بالدليل كالشاهد له ، ولم يذكر مثل ذلك في الراسخين ، فهم إذن بضد هؤلاء حيث وقفوا في المتشابه فلم يحكموا فيه ولا عليه سوى التسليم ، وهذا المعنى خاص بمن طلب الحق من الأدلة ، لا يدخل فيه من طلب في الأدلة ما يصحح هواه السابق .

والقسم الثاني : من ليس براسخ في العلم ، وهو الزائغ ، فحصل له من الآية وصفان :

أحدهما : بالنص وهو الزيغ ؛ لقوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ [آل عمران: ٧] ، والزيغ : هو الميل عن الصراط المستقيم ، وهو ذم لهم .

والثاني : بالمعنى الذي أعطاه التقسيم ، وهو عدم الرسوخ في العلم ، وكل منفي عنه الرسوخ فإلى الجهل هو مائل ، ومن جهة الجهل حصل له الزيغ ؛ لأن من نعي عليه في طريق الاستنباط واتباع الأدلة لبعض الجهالات ؛ لم يحل له أن يتبع الأدلة المحكمة ولا المتشابهة .

فلو فرضنا أنه يتبع المحكم ؛ لم يكن اتباعه مفيداً لحكمه ؛ لإمكان أن يتبعه على وجه واضح البطلان أو متشابه ، فما ظنك به إذا اتبع نفس المتشابه؟!

ثم اتباعه للمتشابه ـ لو كان من جهة الاسترشاد به لا للفتنة به ـ ؛ لم

يحصل به مقصود على حال ، فما ظنك به إذا اتبع ابتغاء الفتنة ؟!

وهكذا المحكم إذا اتبعه ابتغاء الفتنة به ، فكثيراً ما ترى الجهال يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة صحيحة؛ اقتصاراً بالنظر على دليل ما ، واطراحاً للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره أو المعارضة له .

وكثير ممن يدعي العلم يتخذ هذا الطريق مسلكاً ، وربما أفتى بمقتضاه وعمل على وفقه إذا كان له فيه غرض . . . ، وكذلك الأمر أبداً في كل مسألة يتبع فيها الهوى أولاً ، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء أو من أدلة الشرع وكلام العرب أبداً ، لاتساعه وتصرفه ، ويحتمل [أنها][1] كثيرة ، لكن يعلم الراسخون المراد منه ؛ من أوله وآخره ، أو فحواه ، أو بساط حاله أو قرائنه ، فمن لا يعتبره من أوله إلى آخره ويعتبر ما ابتنى عليه ؛ زلَّ في فهمه، وهو شأن من يأخذ الأدلة من أطراف العبارة الشرعية ، ولا ينظر بعضها ببعض ، فيوشك أن يزل، وليس هذا من شأن الراسخين ، وإنما هو من شأن من استعجل؛ طلباً للمخرج في دعواه .

فقد حصل من الآية المذكورة أن الزيغ لا يجري على طريق الراسخ بغير حكم الاتفاق ، وأن الراسخ لا زيغ معه بالقصد ألبتة »[2] اهـ.

وحول هذا المعنى يقول الله عز وجل في اليهود : ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ**

(١) كذا في الاعتصام ، تحقيق : سليم الهلالي . وفي نسخة رشيد رضا : (واحتمالاتها كثيرة) . ولعل الصواب هو : (ويحتمل أوجهاً كثيرة) فهو أشبه بالسياق ، والله أعلم .
(٢) الاعتصام (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥) طبعة تحقيق سليم الهلالي .

مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

[آل عمران: ٧٨]

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين ، وهذه الحال التي يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب نعرفها نحن جيداً في زماننا هذا ، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ويلوونها ليا ؛ ليصلوا منها إلى مقررات معينة يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أراده الله منها ، بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلجاء .

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلماً ! الذين يحترفون الدين ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها ، ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ويلوون أعناق هذه النصوص ليا لتوافق هذه الأهواء السائدة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية ، ويبذلون جهداً لاهثاً في التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية وهوى من الأهواء السائدة التي يهمهم تمليقها ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٨] .

كما يحكي القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء، فهي آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم ، إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض! ، وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله، ومجاراة أهوائهم المنحرفة ، التي تصادم دين الله. . ، وكأنما كان الله سبحانه يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبيء، الذي انتهى بنزع أمانة القيادة من بني إسرائيل»[1] اهـ .

٢ـ كتمان الحق وإخفاؤه :

وهذه هي الطريقة الثانية من طرق لبس الحق بالباطل ، والذي يؤدي إلى تحريف الأدلة عن مواضعها ، وتغطية الحق به . يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند قوله سبحانه : **﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾** [البقرة: ٤٢]: « هما متلازمان ، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل ، فصار ملبوساً . ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيلبس الحق بالباطل، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله ، فلابد أن يظهر باطلاً »[2] اهـ.

وسبق لنا أيضاً من كلام الرازي عند نفس الآية قوله : « اعلم أن إضلال

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤١٨، ٤١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٢).

الغير لا يحصل إلا بطريقين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها»[1] .

وقد ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ من النصوص المحذرة من كتمان الحق وإخفائه ، والمتوعدة لفاعليه بالوعيد الشديد ما يلي :

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، وقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٧٤].

يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيرها :

« هذه الآية جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله ، ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك فيدخل فيه اليهود والنصارى ، ومن حذا حذوهم في شرع ما لم يأذن به الله وإظهار خلافه ؛ سواء كان ذلك في أمر العقائد ككتمان اليهود أوصاف النبي ﷺ ، أو الأكل والتقشف وغير ذلك من الأحكام التي كانوا يكتمونها إذا كان لهم منفعة في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وفي حكمهم كل من يبدي بعض العلم ويكتم بعضاً لمنفعة لا لإظهار

---

(١) التفسير الكبير (٣/ ٤٠).

الحق وتأييده »[1] اهـ.

ومثله قوله تعالى في اليهود ومن حذا حذوهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

يقول القرطبي رحمه الله: «قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرءوه وعلموه وخالفوا حكمه، وأتوا محارمه مع دراستهم له، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم لا يتوبون.

ودل على أنهم لا يتوبون قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ والعرض: متاع الدنيا؛ بفتح الراء. وإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير. والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة، ثم ذمهم باغترارهم في قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون، وإنما يقول: سيغفر لنا من أقلع وندم.

قلت: وهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به هؤلاء موجود فينا. أسند الدارمي أبو محمد: حدثنا محمد بن المبارك حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سَيَبْلَى القرآنُ في صدور أقوام كما يَبْلَى الثّوب فيتهافت، يقرأونه لا يجدون له

(١) تفسير المنار (٢/ ١٠١).

شهوة ولا لذة ، يَلْبَسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهُم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصروا قالوا: سنبلغ ، وإن أساءوا قالوا: سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً[١] .

وقيل : إن الضمير في « يأتهم » ليهود المدينة ؛ أي وإن يأت يهودَ يَثْرِبَ الذين كانوا على عهد النبي ﷺ عَرَض مِثْلُه يأخذوه كما أخذه أسلافهم.

قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ، فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ** ﴾ يريد التوراة ، وهذا تشديد في لزوم قبول الحق في الشرع والأحكام ، وألا يميل الحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق لازم لنا على لسان نبينا »[٢] اهـ.

وبقيت كلمة أخيرة في موضوع كتمان الحق ، ألا وهي أن بعض الطيبين قد يقول : ألا يجوز كتمان العلم بل يجب أحياناً عند خوف الفتنة من الجهر به سواء على النفس أو على الناس ؟ والجواب فيه تفصيل كما يلي :

---

(١) سنن الدارمي : كتاب فضائل القرآن (٤) باب : في تعاهد القرآن (ح٣٢٢٥) : (٢/ ٨٩٦).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٣١١).

بادئ ذي بدء فإن حديثنا ليس عن كتمان العلم ، وإنما هو عن كتمان الحق الذي يجب أن يقال . وفي نظري ـ والله أعلم ـ أن بينهما اختلافاً ، وذلك أن العلم أنواع ، فمنه ما هو واجب القول به ، وتعليمه للناس كفروض العين ونحوها ، ومنه ما هو مستحب ، ومنه ما يجوز قوله لأناس دون أناس حسب عقولهم وأفهامهم .

أما قول الحق الواجب فأرى أنه من العلم الواجب إيصاله للناس ولا يجوز كتمه ؛ لأن في كتمه مفسدة تخالف مقاصد الشرع أو بعضها ، وفي إخفائه فتنة للناس وليس العكس ، فإذا جاز كتمان العلم أو وجب في ضوء قواعد الشريعة المعتبرة ، فإنا والحالة هذه نقول : إن الحق في هذا هو كتمان العلم وإن الجهر بالعلم مع معرفتنا بالمفسدة المترتبة عليه هو الباطل والفتنة .

هذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات حيث قال : « ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره ، وإن كان من علم الشريعة ، ومما يفيد علماً بالأحكام ، بل ذلك ينقسم ؛ فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة ، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق ، أولا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص ، ومن ذلك تعيين هذه الفرقة ، فإنه وإن كان حقاً فقد يثير فتنة كما تبين تقريره ، فيكون من تلك الجهة ممنوعاً بثه . من ذلك علم المتشابهات والكلام فيها ، فإن الله ذم من اتبعها ، فإذا ذكرت وعرضت للكلام فيها فربما أدى ذلك إلى ما هو مستغنى عنه .

وقد جاء في الحديث عن علي : « **حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون**

أن يكذب الله ورسوله »[١] وفي الصحيح عن معاذ أنه عليه الصلاة والسلام قال : « **يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله**... الحديث» إلى أن قال : قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس، قال : « **لا تبشرهم فيتكلوا**»[٢] ، وفي حديث آخر عن معاذ في مثله قال : يا رسول الله، أفلا أخبر بها فيستبشروا ، فقال : « **إذاً يتكلوا**» ، قال أنس ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً[٣] .

ونحو من هذا عن عمر بن الخطاب مع أبي هريرة انظره في كتاب مسلم والبخاري . فإنه قال فيه عمر : « يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً به قلبه بشره بالجنة ؟ قال: نعم ، قال : فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون ، فقال رسول الله ﷺ : « **فخلهم**»[٤] .

وحديث ابن عباس عن عبد الرحمن بن عوف قال : لو شهدت أمير

---

(١) أخرجه البخاري : كتاب العلم (٤٩)ـ باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (ح١٢٧) [فتح الباري (١/ ٢٧٢)] .

(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري ـ كتاب الجهاد (٤٧٦) ، باب : اسم الفرس والحمار (ح٢٨٥٦) [فتح الباري (٦/ ٦٩)] ، وفي مواضع أخرى.
وأخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (تحت ٣٠) (١/ ٥٨ ، ٥٩).

(٣) متفق عليه : أخرجه البخاري ـ كتاب العلم (٤٩) ، باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم.. (ح١٢٨) [فتح (١/ ٢٧٢)] ، ومسلم : كتاب الإيمان ـ (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (ح٣٢) (١/ ٦١).

(٤) أخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان باب (١٠) ـ (ح٣١) (١/ ٥٩، ٦٠) ، وهو غير مخرج في البخاري.

المؤمنين أتاه رجل ، فقال : إن فلاناً يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً ، فقال عمر : لأقومن العشية، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون يغصبونهم ، قلت : لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس ويغلبون على مجلسك ، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها ، فيطيروا بها كل مطير ، وأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة؛ فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها ، فقال: والله لأقومن في أول مقام أقومه بالمدينة . . . الحديث[1] . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى : ومنه ألا يذكر للمبتدي من العلم ما هو حظ المنتهي ، بل يربى بصغار العلم قبل كباره . . . إلى أن قال : وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلماً ما تكلم فيها ولا حدث بها . وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل ، وأخبر عمن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك .

فتنبه لهذا المعنى ، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة ، فإن صحت في ميزانها ، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها على العموم ، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم . وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم ، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية»[2] اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه ـ كتاب الحدود (٣١) باب: رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠) [فتح (١٢/ ١٤٨، ١٤٩)].

(٢) الموافقات (٤/ ١٠٩) . (باختصار) .

٣ـ تحريف الأدلة عن مواضعها :

وهذه الطريقة من طرق التلبيس هي ثمرة من ثمرات الطريقين السابق تفصيلهما ؛ إذ لابد لمحرف الأدلة من كتمان الحق ، ولابد لمتبع المتشابه من تأويل كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ التأويل الفاسد الذي يؤدي إلى حرف الأدلة عما أراد الله بها وأراده رسوله ﷺ ، ومن ثم وضعها في غير موضعها ، وهذا هو نوع من أنواع التحريف للأدلة عن مواضعها ؛ إذ لا يلزم من التحريف أن يكون لفظياً كما فعلت اليهود في التوراة بل إن تحريف المعنى المراد إلى غير المراد هو تحريف للنصوص عن مواضعها أيضاً .

وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالى وهو يستعرض مآخذ أهل البدع في الاستدلال : « ومنها تحريف الأدلة عن مواضعها بأن يرد الدليل على مناط ، فيُصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر ؛ موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيَّات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله .

ويغلب على الظنِّ أن من أقرَّ بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لا يلجأ إليه صراحاً ، إلا من اشتباه يعرض له ، أوجهل يصده عن الحق مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذه . . . وبيان ذلك أن الدليل الشرعي إذا اقتضى أمراً في الجملة مما يتعلق بالعبادات مثلاً فأتى به المكلف في الجملة أيضاً ، كذكر الله والدعاء والنوافل والمستحبات وما أشبهها مما يعلم من الشارع فيها التوسعة ـ كان الدليل عاضداً [لعمله][1] من جهتين : من جهة معناه ، ومن جهة عمل السلف ، فإن أتى المكلف في ذلك الأمر بكيفية مخصوصة أو زمان مخصوص ، أو مكان مخصوص أو مقارناً لعبادة

(١) في الأصل : لعلمه ، والصواب ما أثبته إن شاء الله تعالى .

مخصوصة ، والتزم ذلك بحيث صار متخيلاً أن الكيفية أو الزمان أو المكان مقصود شرعاً من غير أن يدل الدليل عليه ؛ كان الدليل بمعزل عن ذلك المعنى المستدل عليه »[١] اهـ.

ويوضح الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى هذه القاعدة المهمة : (قاعدة تحقيق المناط) توضيحاً أكثر في كتابه العظيم (الموافقات) ، فيقول :

« كل دليل شرعي فمبني على **مقدمتين** : إحداهما : راجعة إلى تحقيق مناط[٢] الحكم . والأخرى : ترجع إلى نفس الحكم الشرعي .

فالأولى نظرية : وأعني بالنظرية هنا ما سوى النقلية سواء علينا أَثَبَتَتْ بالضرورة أم بالفكر والتدبر ، ولا أعني بالنظرية مقابل الضرورية . **والثانية نقلية** .

وبيان ذلك ظاهر في كل مطلب شرعي بل هذا جار في كل مطلب عقلي أو نقلي فيصح أن نقول الأولى راجعة إلى تحقيق المناط ، والثانية راجعة إلى الحكم ، ولكن المقصود هنا بيان المطالب الشرعية .

فإذا قلت : إن كل مسكر حرام ، فلا يتم القضاء عليه حتى يكون بحيث يشار إلى المقصود منه ليستعمل أو لا يستعمل ؛ لأن الشرائع إنما جاءت لتحكم على الفاعلين من جهة ما هم فاعلون ، فإن شرع المكلف في تناول خمر مثلاً ، قيل له : أهذا خمر أم لا ؟ فلابد من النظر في كونه خمراً أو غير خمر ، وهو معنى تحقيق المناط . فإذا وجد فيه أمارة الخمر أو حقيقتها بنظر معتبر ، قال : نعم هذا خمر ، فيقال له : كل خمر حرام الاستعمال ؛ فيجتنبه .

(١) الاعتصام (١/ ٣١٧ ، ٣١٨) .

(٢) المناط : هو الوصف المناسب الذي يناط به الحكم .

وكذلك إذا أراد أن يتوضأ بماء فلابد من النظر إليه هل هو مطلق أم لا ، وذلك برؤية اللون وبذوق الطعم وشم الرائحة . فإذا تبين أنه على أصل خلقته ، فقد تحقق مناطه عنده ، وأنه مطلق ، وهي المقدمة النظرية ثم يضيف إلى هذه المقدمة ثانية نقلية ، وهي أن كل ماء مطلق ، فالوضوء به جائز . وكذلك إذا نظر هل هو مخاطب بالوضوء أم لا فينظر هل هو محدث أم لا . فإن تحقق الحدث فقد حقق مناط الحكم ، فيرد عليه أنه غير مطلوب بالوضوء، وإن تحقق فقده ، فكذلك فيرد عليه أنه غير مطلوب الوضوء وهي المقدمة النقلية .

فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين مطلقة ومقيدة ، وذلك مقتضى إحدى المقدمتين وهي النقلية، ولا ينزل الحكم بها إلا على التحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو على التقييد وهو مقتضى المقدمة النظرية ، والمسألة ظاهرة في الشرعيات نعم، وفي اللغويات والعقليات ؛ فإنا إذا قلنا ضرب زيد عمراً، وأردنا أن نعرف الذي يرفع من الاسمين وما الذي ينصب، فلابد من معرفة الفاعل من المفعول . فإذا حققنا الفاعل وميزناه حكمنا عليه بمقتضى المقدمة النقلية ، وهي أن كل فاعل مرفوع، ونصبنا المفعول كذلك؛ لأن كل مفعول منصوب .

وإذا أردنا أن نصغر (عقرباً) تحققنا أنه رباعي يستحق من أبنية التصغير بنية (فعيعيل) ؛ لأن كل رباعي على هذه الشاكلة تصغيره على هذه البنية ، وهكذا في سائر علوم اللغة ، وأما العقليات فكما إذا نظرنا في العالم هل هو حادث أم لا ؟ فلابد من تحقيق مناط الحكم - وهو العالم - فنجده متغيراً ، وهي المقدمة الأولى، ثم نأتي بمقدمة مسلمة ، وهو قولنا: كل متغير

حادث»[١] اهـ.

مما سبق بيانه في كلام الشاطبي رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الانتباه إلى قاعدة تحقيق المناط ، وأن إغفالها وعدم تحقيقها هو الذي يوقع غالباً في اللبس ، وينشأ من التفريط فيها تحريف الأدلة عن مواضعها، وإنزال أحكام الشريعة في غير مراد الله سبحانه ، وغير مراد رسوله ﷺ منها .

ولكي تتضح هذه القاعدة بشكل أكثر وضوحاً ؛ أسوق المثال التالي من واقعنا المعاصر، ألا وهو تحديد مفهوم الفتنة وأهلها ، فلو طبقنا المقدمتين اللتين ذكرهما الشاطبي فيما سبق على موضوع الفتنة وحقيقتها ، ومتى تسمى فتنة ، ومتى يسمى الداعون إلى أمرٍ ما بأنهم دعاة فتنة؟

لو طبقنا هاتين المقدمتين لاتضح الأمر وبان، فحكم الله عز وجل في الفتنة أنها محرمة ومرفوضة ، وبالتالي فإن الداعين إليها هم دعاة فتنة ، فيجب منعهم والحذر من شرهم ، هذا حكم الله سبحانه وهو **المقدمة النقلية**، ولكن يبقى تحقيق المناط في أي أمر يجد وهو **المقدمة النظرية**. وهو هنا البحث في حاله وحال أهله، هل هم دعاة فتنة وشر وخراب للمجتمع ، أم هم دعاة إصلاح ونصح وغيرة على محارم الله عز وجل؟

إن المنصف القائم لله سبحانه ليعلم أن الدعاة إلى الخير والإصلاح والنصح ليسوا دعاة فتنة وشر ، وبالتالي لا يجوز إنزال المناط في غير حكمه ومحله. وهذا لا يكون إلا عند صاحب هوى قد أسكره هواه، أو جاهل لم يكلف نفسه بالبحث والتحقيق . أما من أدى به اجتهاده من أهل الاجتهاد إلى أن : مفسدة قول الحق أكبر من مصلحته وتؤدي إلى فتنة ، وكان متجرداً فهو مأجور إن شاء الله ، أصاب أم أخطأ.

---

(١) الموافقات (٣/ ٢٤).

وقبل الانتهاء من مبحث أسباب التلبيس أنقل كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يبين فيه أثر استيلاء النفس الأمارة بالسوء في التباس الحق بالباطل ، وأن هناك صراعاً بين النفس الأمارة والمطمئنة . يقول رحمه الله تعالى :

« وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها ، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق ، وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجاءه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه ، فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر الخلق .

وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي ، وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة ، وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال . فتقوم الحرب بين هاتين النفسين ، والمنصور من نصره الله .

وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها في عدة قوالب ، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق ، والله يعلم أنها كاذبة وما هو مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى فضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها .

ولعمر الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهي مسجونة في هذا العالم ، وفي البرزخ في أضيق منه ، ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب ، فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة ، وأكثر الخلق: صبيان العقول أطفال الأحلام ، ولم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيجتنبه ، فتريه صورة تجريد التوحيد التي هي أبهى من صورة الشمس والقمر، صورة التنقيص المذموم ، وهضم العظماء منازلهم ، وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذي لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله.

فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم ، وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء ؛ فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون : ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] .

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله ، وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم ، وأنهم قد فاتهم الصواب . وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتنفر من ذلك أشد النفار ، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع ، وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم ، فما وافقها قبلناه ، وما خالفها رددناه ، أوأولناه أو فوضناه ، وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . . .

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر ، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة ، فيتباين الفعلان في الباطن ، ويشتبهان في الظاهر .

ولذلك أمثلة كثيرة منها : المداراة والمداهنة : فالأول من المطمئنة ، والثاني من الأمارة، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتيه، والحمية والجفاء ، والتواضع والمهانة ، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض، والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والصيانة والتكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والشح ، والاحتراز وسوء الظن ، والفراسة والظن ، والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة ، والصبر والقسوة، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة، والثقة والغرة ، والرجاء والتمني . والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس، ورقة القلب والجزع، والموجدة والحقد، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الإمامة والدعوة إلى الله ، والحب لله والحب مع الله ، والتوكل والعجز، والاحتياط والوسوسة، وإلهام الملك وإلهام الشيطان ، والأناة والتسويف، والاقتصاد والتقصير ، والاجتهاد والغلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، و الإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة، وهو منقسم إلى محمود ومذموم»[1] .

* * *

(١) الروح ص (٢٣٠). (باختصار).

المبحث الرابع
صور من لبس الحق بالباطل

بعد بيان الأسباب التي تؤدي إلى لبس الحق بالباطل، والمؤدية بدورها إلى الضلال والإضلال، وبعد بيان معنى اللبس والتلبيس، وأنه إلباس الهوى والشهوة لبوساً شرعياً بتحريف الأدلة أوكتمانها . نذكر هنا بعضاً من صور اللبس والتضليل ؛ وذلك لنحذر من الوقوع فيها بأنفسنا ، ونحذر إخواننا المسلمين من الوقوع فيها والانخداع بها ، ولم أراع في ترتيبها الأهمية لكن حسب ما عنَّ في الخاطر . أسأله سبحانه التوفيق والسداد في القول والعمل. فمن هذه الصور ما يلي :

١ـ الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله والمستحلة لما حرم الله بآثار عن السلف أنه «كفر دون كفر» :

وهذا والله تحريف للأدلة عن مواضعها، وإنزال الحكم في غير محله، وافتراء وتجن على حبر الأمة وترجمان القرآن، وعلى خير القرون في هذه الأمة ؛ فما كانوا عن عصرنا يتحدثون ، ولا أنظمته المبدلة لشرع الله يقصدون. فالله المستعان وعليه التكلان.

ومن أحسن ما رأيت من الردود على هذا التلبيس ما كتبه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى ؛ أنقله بطوله لأهميته :

قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير : « وهذه الآثار ـ عن ابن عباس

وغيره ـ مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا ، من المنتسبين للعلم ، ومن غيرهم من الجرءاء على الدين ؛ يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة ، التي ضربت على بلاد الإسلام .

وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه ، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور ، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة ، عمداً إلى الهوى ، أو جهلاً بالحكم . والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر ، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ؛ ليكون ذلك عذراً لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف .

وهذان الأثران رواهما الطبري : ١٢٠٢٥ ، ١٢٠٢٦ . وكتب عليهما أخي السيد محمود محمد شاكر تعليقاً نفيساً جداً ، قوياً صريحاً ، فرأيت أن أثبت هنا نص أُولى روايتي الطبري ، ثم تعليق أخي على الروايتين .

فروى الطبري(١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير ، قال : « أتى أبا مجْلَز ناس من بني عمرو بن سدوس ، فقالوا : يا أبا مجلز ، أرأيت قول الله : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤] ، أحق هو؟ قال : نعم، قالوا : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥] أحق هو ؟ قال : نعم ، قالوا : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٧] أحق هو ؟ قال : نعم .

قال : فقالوا : يا أبا مجلز ، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله ؟ قال : هو دينهم الذي يدينون به ، وبه يقولون ، وإليه يدعون . فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا بأنهم أصابوا ذنباً ، فقالوا : لا والله، ولكنك تفرق ! قال : أنتم أولى بهذا مني ! لا أرى وإنكم ترون هذا ولا تحرجون! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى

وأهل الشرك ، أو نحو من هذا » .

ثم روى الطبري (١٢٠٢٦) نحو معناه ، وإسناداه صحيحان .

فكتب أخي السيد محمود ، بمناسبة هذين الأثرين ما نصه : « اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة . وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله ، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها ، والعامل عليها .

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول ، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني السدوسي) تابعي ثقة ، وكان يحب عليًا رضي الله عنه ، وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان ، من شيعة علي يوم الجمل وصفين ، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه طائفة من بني شيبان ، ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل .

وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس (كما في الأثر ١٢٠٢٥) ، وهم نفر من الإباضية (كما في الأثر ١٢٠٢٦) ، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية ، هم أصحاب عبد الله بن إباض التميمي ، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير علي رضي الله عنه إذ حكَّم الحكمين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم .

ثم إن عبد الله بن إباض قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ، فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم .

ثم افترقت الإباضية بعد عبد الله بن إباض الإمام افتراقاً لا ندري معه - في أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء السائلون ، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دور مخالفيهم دور توحيد ، إلا معسكر السلطان ؛ فإنه دار كفر عندهم . ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها .

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية ، إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه . ولذلك قال لهم في الخبر الأول (رقم ١٢٠٢٥) : فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ، وقال لهم في الخبر الثاني : إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب .

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عمّا احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه ، وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبة عن دينه ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة ، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها ، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس!!

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة ، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها ، هذه واحدة . وأخرى ، أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ؛ فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة . وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكم بها متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء ، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ .

وإما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابهما ، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة في نصرة سلطان أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده ؛ فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم

الله، ورضي بتبديل الأحكام ـ فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين . وكتبه محمود محمد شاكر»[١] اهـ.

بعد هذا النقل الذي لا يحتاج إلى مزيد هل لقائل أن يقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما أو إن أبا مجلز كانا يقصدان بقوليهما أهل زماننا الذين بدلوا شرع الله وأعرضوا عن الحكم به والتحاكم إليه لعدم صلاحيته لزمانهم هذا ـ زعموا ـ ؟!

اللهم إنا نبرأ من هذا اللبس ونبرئ صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان من هذا التلبيس وهذه المغالطات ، وأنه لا أحد ينزل قول ابن عباس رضي الله عنهما أو قول أبي مجلز على المبدلين لشرع الله في زماننا هذا إلا رجل يسيطر عليه الجهل بالواقع فلا يعلم ما يدور من حوله ، أو رجل منافق ملبس يعلم واقعه وعدم مشابهته للواقع الذي كان يتحدث عنه السلف رضي الله عنهم ، ولكنه يغالط ويخلط الحق بالباطل اتباعاً للهوى ، أو طمعاً في دنيا يصيبها.

٢ـ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل والمهانة:

وهذه الصورة من صور اللبس والمغالطة ليس القصد من إيرادها هنا الرد على المحتجين بالقدر على ضلالهم ومعاصيهم ، وإنما المقصود التنبيه على أن من يحتج بالقضاء والقدر ليبرر به انحرافه وكسله وضعفه إنما هو مغالط وملبس ومدلس ، وهو يعلم في قرارة نفسه أن لا حجة له في ذلك ، وإنما أراد أن يخلط باطله وضعفه وانحرافه بقضاء الله وقدره النافذ ، والذي

(١) عمدة التفسير (٤/١٥٦ـ١٥٨) ، وتفسير الطبري (١٠/٣٤٨ ، ٣٤٩).

هو حق لكن أراد منه باطلاً ، وأنزل الحق في غير ما أنزل له ، وحرف الكلم عن مواضعه بأن وضع الدليل في غير موضعه الذي أراده الله سبحانه منه .

وموضوع الرد على المحتجين بالقدر موجود في مظانه من كتب العقيدة الصحيحة (معتقد أهل السنة والجماعة) من مثل العقيدة الواسطية ، ومعارج القبول ، وشرح العقيدة الطحاوية . . . إلخ .

والمراد هنا كشف اللبس الحاصل بين الحق والباطل في هذه المسألة ؛ حيث إن المحتج بالقدر على فعل المعاصي والإصرار عليها قد وقع في لبس عظيم ، ويعلم هو بنفسه أن احتجاجه ليس في محله ، وإنما أورده لتبرير شهوته وضعفه ؛ بدليل أنه في أمور الدنيا وكسبها لانجده يقعد محتجاً بالقدر ، وأن الله سبحانه كتب عليه الفقر أو الجوع أو عدم الزواج ، بل إنا نجده يسعى ويفعل الأسباب الممكنة لدفع الفقر أو الجوع أو المرض ، أو يجمع المهر للزواج . . . إلخ .

فلماذا لايكون هذا في أمر الدين وأمور الآخرة ، فيسعى للآخرة سعيها ، ويأخذ بأسباب الهداية وأسباب النجاة من النار ، وهي ميسرة لمن أرادها ؟ لماذا هو جبري في أمورالدين والآخرة ، وقدري في أمور الدنيا ؟!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

« وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً ، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ؛ فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل ؛ فلابد إذا ظلمه ظالم ، أو ظلم الناس ظالم وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ، ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع

الضرر التي لا قوام للناس بها : أن يدفع هذا القدر ، وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله . فيقال له : إن كان القدر حجة ؛ فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك . وإن لم يكن حجة ؛ بطل أصل قولك : إن القدر حجة»[1] اهـ .

ثم إن هذا الملبس والمغالط لو أنه احتج بالقدر على الذنب بعد وقوعه كمصيبة من المصائب التي قدرها الله عز وجل عليه لكان لذلك وجه حتى لا ييأس من التوبة ؛ فالله سبحانه قد قدر عليه الذنب بقضائه الكوني القدري لحكمة يعلمها سبحانه ، وتم ما أراده الله عز وجل ، فعندئذ نقول : قدر الله وما شاء فعل ، فلا تيأس من رحمة الله بعد وقوعك في الذنب ، ولا تهن وتضعف من تسلط الأعداء ؛ فإن الله سبحانه الذي أراد هذا كوناً وقدراً قد أراد مدافعته ديناً وشرعاً بالتوبة النصوح وجهاد الأعداء ، وبهذا ندفع أقدار الله سبحانه بأقداره عز وجل .

ومن هنا نفهم معنى قول من قال من السلف : « إنه يحتج بالقدر على المصائب لا على المعائب» ؛ أي إن القدر لايجوز الاحتجاج به على فعل العيب أو قوله من الذنوب والمعاصي وترك الجهاد . . . إلخ لكن يحتج به على المصائب الناشئة عن هذه الذنوب حتى لا يدخل اليأس إلى النفوس ، وحتى ينهض العاصي من عثرته ليزيل آثار الذنوب والتوبة والإنابة والندم . أما أن يفعل الذنوب أو أن يقدم ويتجرأ على فعلها محتجاً بالقدر فلا شك ولا ريب أن كل عاقل - فضلاً عن كل مسلم - يعلم أن هذا لبس للحق بالباطل ، ومغالطة أي مغالطة ، وفاعل ذلك يعلم من نفسه أنه ليس على حق

(١) العبودية ص(٢١).

في صنيعه هذا لكنها الشهوة والضعف والهوى .

وأختم هذه الصور بكلام نفيس للإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى حول هذه المسألة فيقول :

«وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلَّمك أسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق ؟ ! قال : نعم . قال : فحج آدم موسى**»[1] .

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ، ظناً أن المذنب يحتج بالقدر ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وكل كافر ، ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب ، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ، ولكن لامه لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ، ولهذا قال : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم : إن هذا كان مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق . فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدراً ، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب من المعايب ، ويصبر على المصائب . قال تعالى : ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ [غافر : ٥٥] .

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري بنحوه ـ كتاب التفسير ـ (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (٢٦٥٢) .

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال يوسف: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

[يوسف: ٩٠]

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله، كما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ١ - ٤] »[1] اهـ.

وقريباً من الذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالواقع أولئك الذين يتجرأون على فعل المعاصي اعتماداً على رحمة الله سبحانه؛ نعم إن الله غفور رحيم، ولكن هذه الرحمة لا يقصد بها أن يتجرأ هذا الملبس

(١) العبودية ص(١٧).

على المعصية ، وإنما المقصود منها فتح باب التوبة والرحمة لمن وقع فيها وانتهى وندم، فيقال له: لا تيأس ؛ فإن الله غفور رحيم.

٣ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن:

ليس المقصود من إيراد هذه الصورة هو الحديث والاستفاضة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وشروطه وضوابطه ، فكل هذا ليس المقصود في هذه المسألة ، فتفصيل الأمر والنهي وشروطهما موجود في مظانه من كتب أهل العلم وبخاصة رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإنما المقصود من إيراد هذا العنوان هو التحذير من خلط الأمور في هذه الشعيرة العظيمة ، والانتباه إلى أن هناك من يترك الأمر والنهي عجزاً وكسلاً وجبناً وبخلاً ، فبدلاً من الاعتراف بذلك والسعي للتخلص منه فإنه يحاول جاهداً تغطية ضعفه هذا بمبررات شرعية منها: الخوف من الفتن، واعتزال كل ما يعرض النفس للابتلاء والفتنة والهلكة ، ودرء المفاسد ، معتمداً على قاعدة تعارض المصالح والمفاسد والضوابط الشرعية في ذلك .

وكما أسلفت فإن موضوع هذه الصورة ليس الحديث عن القواعد والضوابط الشرعية في ذلك ؛ فهي لا شك معتبرة ، وهي الأصل في الأمر والنهي ، وإنما موضوعنا هو كشف اللبس والتدليس والمغالطة على النفس وعلى الناس في أن النكول عن الأمر والنهي قد تم من منطلق شرعي وضوابط شرعية ، والأمر في حقيقته ليس كذلك ، وإنما هو الخوف والجبن وإيثار السلامة وعدم تحمل أي أذى ومكروه في سبيل الله عز وجل . وإلا لو

كان المنطلق شرعياً وفق الضوابط الشرعية وفي حالة معينة أدى الاجتهاد فيها إلى أن المفسدة أكبر والمصلحة أقل ؛ فهذا معتبر شرعاً : أصاب المجتهد فيها أم أخطأ .

لكن الحديث ليس عن هذا المجتهد الباحث عن الحق ، بل هو كما سبق ذكره متوجه إلى ذلك المغالط الذي يغطي ضعفه وهواه بلبوس شرعي ؛ يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة ؛ صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة ، كما قال عن المنافقين : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩].

وقد ذكر في التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم، وأظنه قال : « هل لك في نساء بني الأصفر؟ » ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل لا أصبر عن النساء ؛ وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر ، فائذن لي ولا تفتني[1] .

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة ، واستتر بجمل أحمر ، وجاء فيه الحديث : « **إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر**»[2] فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن ، فيحتاج

---

(١) انظر تفسير الطبري ، الآثار (١٦٧٨٥ ـ ١٦٧٨٩) (١٤/ ٢٨٨) الطبعة المحققة .

(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (ح ٢٧٨٠) (٤/ ٢١٤٤ ـ ٢١٤٥).

إلى الاحتراز من المحظور، ومجاهدة نفسه عنه فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع ، وإما للعجز عنها يعذب قلبه ، وإن قدر عليها وفعل المحظور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قوله : ﴿ لا تَفْتِنِّي ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾، يقول: نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها ، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته ؟ والله يقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة ؛ فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده ، وتركه ما أمر الله به من الجهاد.

فتدبر هذا ؛ فإن هذا مقام خطر ؛ فإن الناس هنا ثلاثة أقسام : قسم يأمرون وينهون ويقاتلون ؛ طلباً لإزالة الفتنة التي زعموا ، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة ؛ كالمقتتلين في الفتنة الواقعة بين الأمة.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا ؛ لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد سقطوا في الفتنة ، وهذه الفتنة المذكورة في «سورة براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة ؛ فإنها سبب نزول الآية .

وهذه حال كثير من المتدينين؛ يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا ؛ لئلا يفتنوا

بجنس الشهوات؛ وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان؛ وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعًا، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغي؛ فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلابد أن يفعل شيئاً من المحظورات.

فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين؛ فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه من المفسدة، وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً لم يفوت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب يكون دون ذلك؛ فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات، فهذا هذا. وتفصيل ذلك يطول.

وكل بشر على وجه الأرض لابد له من أمر ونهي، ولابد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها، إما بمعروف وإما بمنكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، ولابد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك؛ فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلابد أن يكون بينهم ائتمار بأمر وتناه عن أمر»[1] اهـ.

بعد هذا الكلام النفيس لشيخ الإسلام؛ هل لقائل أن يقول: إنه يجب

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٦٦-١٦٨).

الابتعاد في الدعوة إلى الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر على الداعية الأذى والمحن ؟!

إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسى سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل ، وسنته سبحانه في الابتلاء والتمحيص . قال تعالى : ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت : ١ - ٣] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ .

[العنكبوت : ١٠ ، ١١]

نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد المغرم ؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذى يعترض في الطريق ولو كان قليلاً ، فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشيط ومتحرك ، فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص آثر السلامة والراحة ، وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد .

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذى والابتلاء ؛ كلا ، فالمطلوب سؤال العافية وعدم تمني البلاء ، كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلى التهور والطيش ؛ معاذ الله ، فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات ، لكن المراد ألا نغفل عن سنة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين ، وأن نوطن أنفسنا على هذه الأمور ؛ لأنه لابد منها لكل من ادعى الإيمان ، وتصدر الدعوة والجهاد ، ولابد منها لتمييز الخبيث من الطيب ، ولابد منها

لتمحيص القلوب والصفوف .

ولو قلَّبنا تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتاريخ الدعاة والمصلحين لرأينا ذلك المعلَم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً ؛ حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذى والمحن والابتلاء ، بل لم يحصل التمكين لهم ، وإقامة دين الله سبحانه في الأرض على أيديهم إلا بعد الصبر والمصابرة على صنوف الأذى والمحن في سبيل الله سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ، ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه : « **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه . . .** الحديث »[1] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن النفس الأمارة مع الإنسان أنها : « تريه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم ، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق ، وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعنين وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الإكراه ـ باب : من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (ح٦٩٤٣) [فتح (١٢/ ٣٣٠)] .

(٢) الروح ص(٢٣٠).

وقد وقفت على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يفسر فيه سورة الأحزاب، وخاصة ما يتعلق بغزوة الخندق، ويقارن بين حال المسلمين في تلك الغزوة وما أصابهم من الزلازل والمحن فيها، وبين غزو التتار لبلاد الشام ذاكراً أوجه التشابه بين الغزوتين، أنقل منها المناسب للمقام.

يقول رحمه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]:

«كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة -: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة؛ أي مكشوفة، فليس بينها وبين العدو حائل! قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة - غزو التتار - صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون والأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال وما يمكن إرسالهم مع غيرنا! وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد الرسول ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟»[1].

وقال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]:

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٢).

« فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ فلهم فيه أسوة حسنة ؛ حيث أصابهم مثل ما أصابه فليتأسوا به في التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ،وذكر الله كثيراً ،وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك ، فيكون في حقه عذاباً كالكفار والمنافقين»[1] اهـ.

نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الفتن ويبصرنا بمواطن الضعف في نفوسنا ، وأن يعيذنا من النفاق وأن يعيننا على قول الحق والاعتراف بالحق حتى لا نغالط أنفسنا ونلبس على غيرنا ، فنظهر ضعفنا وجبننا في صورة درء المفاسد واعتزال الفتن!!.

وقريب من هؤلاء أولئك الذين يبررون كسلهم وحبهم للراحة وضعف همتهم بالتواضع البارد والزهد في المسئولية ؛ لأنه يعرف أن الدعوة إلى الله سبحانه لايعرف صاحبها الراحة وتحتاج إلى همة عالية ، لكنه عوضاً من أن يعترف بضعفه هذا ويسعى إلى ترقيعه فإنه يغالط نفسه وغيره بإلقاء هذا الضعف على الخوف من المسئولية واحتقار النفس ، وأن هناك من هو أولى وأتقى وأفضل . . . إلخ .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها ؛ فإن الناصح لله

---

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٥٩) .

المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله في عبوديته ، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة في الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين .

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً ، وفي قلوبهم مهيباً وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ، ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمد عليه ، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه ، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال : ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٤].

فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه ، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] ، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامة إلا بها ، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن

جل جلاله؛ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة؛ لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين؛ كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة؛ فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهُم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد.

والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده»[1] اهـ.

ومثل هؤلاء الذين يبررون ضعفهم وتنصلهم بمبرر شرعي هو اعتزال الفتن أو الخوف من المسؤولية؛ مثلهم أولئك الذين يبررون خوفهم وترددهم بالحزم والتأني والخوف من الله سبحانه في أن يقدموا على أمر لم يتثبتوا فيه، ولم يدرسوه الدراسة الشرعية المتأنية، وهذا حق لا شك فيه؛ فلا ينبغي القدوم على أمر حتى يتم التثبت منه، وأنه الأرضى لله عز وجل، لكن المشكلة والمغالطة هنا هي في استخدام هذه الشبهة الشرعية في تغطية الجبن والخور اللذين يسيطران على النفس، وعلامة ذلك أن هذا التثبت وهذه

(١) الروح (٢٥٣).

الدراسة لا تنتهي ولا تحسم بل قد تستمر إلى الموت مع الحاجة الماسة للدين وأهله لحسم الأمر وانتهاء الدراسة ، فماذا يعني هذا ؟!

ولذلك جاء في دعاء الرسول ﷺ : « **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**»[١] .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح هذا الدعاء العظيم : « وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أُتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له ، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح ، والله ولي التوفيق»[٢] .

ويقول في موضع آخر :

« وأما الفرق بين الحزم والجبن ، فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض . فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ؛ ومنه حزمة الحطب ، فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيريْن وشر الشرين ، فأحجم في موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا»[٣]

وقال أيضاً : « والفرق بين المبادرة والعجلة ، أن المبادرة انتهاز الفرصة في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٢٣ ، ١٢٥) ، والترمذي في الدعوات (٢٣) باب : سؤال الثبات في الأمر (ح ٣٤٠٤) (٩/ ١١١)، والنسائي (٣/ ٥٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٥٤) .

(٣) الروح (٢٣٧) .

وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها ، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته ؛ فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما: التفريط والإضاعة ، والثاني: الاستعجال قبل الوقت. ولهذا كانت العجلة من الشيطان ؛ فإنه خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور، وتمنعه أنواعاً من الخير، وهي قرين الندامة، فقلّ من استعجل إلا ندم، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة »[1] اهـ.

ومما يتعلق بهذه الصورة أيضاً ولو من بعيد ما تُزيّنه النفس والشيطان لبعض الطيبين من تثبيطه عن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة الانشغال بطلب العلم وتربية النفس ، فإن كان الدافع إلى هذه المغالطة هو الشبهة ، فإن الأمر هين، وعلاجه بأن يقال لمن هذا تفكيره: إن طلب العلم والتفقه في دين الله عز وجل أمر مطلوب ، والتساهل فيه لا يجوز بحال؛ لأنه العاصم بإذن الله من الانحراف ، ولكن ألم تعلم أن اقتضاء العلم العمل، وأنه لا قيمة للعمل الذي لا يعمل به صاحبه ويدعو إليه ؟ وكذلك ألم تقرأ سورة العصر ، وما جاء فيها من صفات الناجين من الخسران ، وأنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه؟

(١) الروح (٢٥٨).

أما إذا كان الدافع إلى هذا اللبس والتزيين هو الشهوة والكسل وإيثار الراحة والسلامة؛ فإن الأمر أشد وعلاجه أصعب؛ لأن هذا المغالط يعرف من نفسه الضعف والركون إلى الراحة، لكن بدلاً من أن يعترف بهذا الضعف ويسعى لرتقه وإصلاحه ، فإنه يعزي نفسه ويظهر لغيره أن طلب العلم والانشغال بالنفس مقدم على دعوة الغير، وهذا حق أريد به باطل . نسأل الله عز وجل أن يعيذنا من شرور أنفسنا وشر الشيطان وشركه.

٤ـ المداهنة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح :

إن الخلط بين المداراة والمداهنة والتساهل في الولاء والبراء بحجة التسامح ؛ إن كل ذلك تنتج عنه آثار خطيرة على الدين وأهله ، وذلك بما يفرزه هذا الخلط واللبس من المغالطة والتضليل على الأمة في أن ما يقع من الملبسين من مداهنة وموالاة لأعداء هذا الدين إنما هو مداراة ويقصد منه مصلحة الأمة ، وكذلك إظهار محاسن هذا الدين ،وما فيه من التسامح وحبه للصلح والسلام ونبذه للعنف والشدة ، وغير هذا من المبررات والمغالطات التي يغطي بها الملبس عواره من المداهنة والموالاة لأعداء الله.

وإيضاحاً لهذا الأمر أنقل كلاماً لبعض أهل العلم يزيل اللبس في مسألة المداراة والمداهنة ، ومسألة الولاء والتسامح .

قال البخاري رحمه الله تعالى في باب المداراة مع الناس : «ويذكر عن أبي الدرداء : إنا نكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم . وعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل ، فقال : « **ائذنوا له فبئس ابن العشيرة** » أو« **بئس أخو العشيرة**»، فلما دخل ألان له الكلام ، فقلت له : يا رسول الله ، قلت ما قلت ،ثم ألنت له في القول، فقال : « **أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ـ أو ودعه ـ الناس اتقاء فحشه**»[1] اهـ .

ويعلق ابن حجر رحمه الله تعالى على حديث عائشة بقوله: قال ابن بطال: «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة».

وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل لا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»[٢] اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الفرق بين المداراة والمداهنة وخطورة الخلط بينهما:

«وكذلك المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على الباطل ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف عليها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمراهم ما يمنع فساده ويقطع مادته، ثم تابع عليها

---

(١) أخرجه البخاري- كتاب الأدب (٨٢) باب: المداراة مع الناس (ح٦١٣١) [فتح (١٠/ ٥٤٤)].

(٢) الفتح (١٠/ ٥٤٥).

بالمراهم التي تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها، ثم يشد عليها الرباط ، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت .

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب[1] بخرقة ، ثم أُله عنها ، فلا تزال مادتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها .

وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله ، فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة ، فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق ، وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل إليها النافع ضاراً والضار نافعاً، والحسن قبيحاً والقبيح جميلاً ، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر .

ولهذا يقول سبحانه : ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] ، والذي نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه، وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه ، وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمراء الأمم من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه، وهما متساعدان عليه متعاونان»[2] اهـ .

من هذا البيان الشافي تبين حقيقة المداراة والمداهنة، وأنهما ضدان لا يجتمعان ؛ إذ إن المداراة صفة مدح ، وهي لأهل الإيمان ، بينما المداهنة صفة ذم، وهي لأهل النفاق .

---

(١) (العيوب) كذا في الأصل، ولعل الصواب هو: (العيون).

(٢) الروح ص٢٣١.

فهل بقي بعد هذا البيان مجال للالتباس في هذا الأمر ؟ اللَّهم لا إلا عند مغالط مكابر يريد أن يستر نفاقه وضعفه بلَبوس الشرع ، والشرع من ذلك بريء ، ويعلم المغالط نفسه أنه ملبس ومكابر وليس على حق في استدلاله . ثم إن مكمن الخطر في هذا الخلط ليس في مداهنة الفساق وأهل المعاصي من المسلمين فحسب ، وإنما الأخطر من ذلك هو مداهنة الكفار بمشاربهم المختلفة تحت غطاء المداراة ومصلحة الأمة حتى اهتز جانب الولاء والبراء ، والذي هو الركن الركين في عقيدة التوحيد ، وبدأ حاجز البغض للكفر وأهله يضعف ، بل انهدم عند البعض ؛ والسبب في ذلك الجهل بحقيقة المداراة والمداهنة والمغالطة فيهما عن علم وهوىً.

والحديث عن هذا الموضوع يجرنا إلى موضوع التسامح الديني واستخدامه مبرراً للتقريب بين الأديان ، ومداهنة الكفار والسكوت عن باطلهم ، أو تحسين مناهجهم والتحالف معهم . وبخاصة مع الكفار من أهل الكتاب بحجة تناصر أهل الأديان السماوية في محاربة الإلحاد ، ومعلوم ما في هذا التلبيس والمغالطة من الخطر العظيم الذي يهدد العقيدة فضلاً عن الأخلاق والقيم .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى محذراً من هذا التميع والتلبيس :

«وسذاجة أية سذاجة ، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين ، فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين .

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان ، وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في

الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعاً أهل دين ، ناسين تعاليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله ، فأهل الكتاب هؤلاء هُم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء : ٥١].

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً ورداءً ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام . وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين، وأحلّوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يُشَرِّدون المسلمين في كل مكان . . . في الحبشة والصومال وأريترية ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان .

ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين. إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، وإذا قَرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن . . إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله ؛ لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .

إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة، موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة ﴿الَّذِينَ

آمَنُوا﴾ ، لقد نزل القرآن ليبث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، ولينشئ تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها ، المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا إلى الله ورسوله والذين آمنوا . . الوعي والمفاصلة اللذان لابُدَّ منهما للمسلم في كل أرض ، وفي كل جيل، فهذا مفرق الطريق، وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى . .

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان ، كما يخطئون في فهم معنى التسامح ، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله ، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .

إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً ـ ولو طفيفاً ـ هذا اليقين الذي يُنشئه القرآن الكريم وهو يقرر ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ

مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩] ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ [المائدة: ٥١].

وفي القرآن كلمة الفصل. . ولا على المسلم من تميّع المتميعين وتمييعهم لهذا اليقين»[1] اهـ .

وقبل إنهاء الحديث عن هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى جانب آخر من جوانب الخلط والتضليل له علاقة شديدة بصورتنا هذه ؛ ألا وهو المغالطة باسم التسامح والعفو وحب السلام ، واستخدام هذه الصفات في تمرير الذل والمهانة والسلام الدائم مع الكفار ، والتعايش السلمي وترك الجهاد.

والعجيب الغريب ، والمضحك المبكي في هذا الأمر أن الذين يبحثون في الشرع عما يغطون به خنوعهم واستسلامهم هم الذين أعرضوا عن الشرع والحكم به والتحاكم إليه، ونبذوه وراءهم ظهرياً فما حاجتهم إلى الشرع هذه المرة لولا التلبيس والتضليل ؛ قال الله سبحانه : ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

وإن العجب ليبلغ ذروته عند سماع من يقول: إن السلام والتعايش السلمي مع الكفار ينطلق من خلق العفو والسماح وحب السلام !!

إنه لعجيب أن يبرر المرء ذلته ومهانته بمبرر العفو والتسامح.

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن : أحمد فائز ٦٢ ـ ٦٤ .

إن العفو والتسامح يكون في الحقوق الخاصة عند القدرة على الانتقام ، أما أن يكون على حساب دين الأمة وعقيدتها وقضاياها فلا يكون ذلك أبداً . ثم إن الاعتراف بالعجز والمهانة وبذل الجهد في التخلص منهما خير من تغطيتهما بغطاء العفو والتسامح ، ولكنها المغالطة والتلبيس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين العفو والذل أن العفو إسقاط حقك جوداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام ، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس؛ فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليهم؛ ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح ، فقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] »[1] .

٥ـ الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن الناس وإنفاق المال في وجوه الخير :

وفي هذه الصورة مدخل خفي للشيطان يتسرب منه إلى نفس الإنسان، ويبلغ اللبس في هذا الأمر من الخفاء بحيث لا يتفطن إليه إلا المجاهد لنفسه، المفتش لقلبه الحذر الخائف من الدنيا وغرورها .

---

(١) الروح (٢٤٢).

ومكمن اللبس هنا في أن التعفف عن الناس أمر مطلوب ويحثّ عليه الشرع في أكثر من آية وحديث، وكذلك الإنفاق في سبيل الله وبذل المال في أوجه البر المختلفة، كل هذا حق لا ريب فيه ، لكن الشيطان لا يألو جهداً في إغواء بني آدم ، وجرهم إلى حزبه خطوة خطوة.

ولهذا فهو يبدأ مع الإنسان ليجره إلى الدنيا وغرورها من باب التعفف عن الناس ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف. . .إلخ، ثم بعد ذلك وبعد انشغاله بالمال وطرق جمعه ومشاكله وشبهاته نبحث عن صاحبنا الذي كنا نراه في لقاءات الخير والدعوة إلى الله سبحانه فلا نراه إلا قليلاً .

وهكذا حتى ينفتح على الدنيا ويركن إليها ، ويضع له الشيطان في كل واد من أوديتها شغلاً وهماً ، فيتشعب فيها الفكر ، ويتشتت فيها الذهن ، ويتحول المال المكتسب إلى استثمارات جديدة وتوسع في المباحات وإسراف في المآكل والمراكب والمساكن، وقد كان الهدف في البداية هو التعفف والإسهام في وجوه الخير والبر .

والغريب في الأمر أن هذا المسكين عندما يُذكر بالآيات التي تحذر من الدنيا وسرعة زوالها وخطر الركون إليها، فإنه بدلاً من أن يشعر بالخطر ويسعى لتدارك الأمر؛ يصر على المغالطة واللبس ، ويقول: إن التعفف عن الناس مطلوب ولابد للداعية أن يكون له مصدر يستغني به عن الناس وينفع به دعوته ويساهم به في الخير، وهو يعلم أن قصده ليس هذا ، وإنما أراد تغطية حبه للدنيا والركون إليها بهذا الغطاء الشرعي الذي لم يراع الضوابط الشرعية فيه.

وقد يقول قائل: إذن ما العمل في مثل هذه الحالة وبخاصة لمن أراد صادقاً أن يتعفف عن الناس وأن ينفع دعوته بالمال؟

والجواب لا أملكه؛ لأنها معادلة صعبة يختلف حلها من شخص لآخر؛ ويكفي في حلها أن يعلم الله سبحانه من أنفسنا أننا نريد التعفف والبذل بصدق في سبيل الله سبحانه فعندئذ يعصمنا برحمته من فتنة الدنيا وزخرفها، ويخرجها من قلوبنا لتبقى في أيدينا.

وكل إنسان على نفسه بصيرة، وهو أدرى بنيته وقصده، إن كان حقاً يريد التعفف ويخاف من الركون إلى الدنيا وأخطارها، أو كان مغالطاً كاذباً في ادعائه هذا. وإنما يظهر ذلك لتغطية حبه للدنيا وزينتها ومتعها واللهث وراء جمعها. اللَّهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وأختم الحديث حول هذه الصورة ببعض الآيات والأحاديث التي تحذر من الركون إلى الدنيا وزينتها.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال ﷺ: «فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما

تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم »[١] .

وهذا التحذير قاله الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم ، وهم أزهد الناس ، وفي زمان يغلب عليه الطهر والخير والكسب الحلال ، فماذا يقال لنا يا من نعيش في هذا العصر الذي يغلب عليه الفساد والكسب الحرام والشبهات الكثيرة المعقدة ؟!

وأخيراً أرجو ألا يفهم من هذا الكلام ترك الدنيا لأهل الفساد ودعاة الشر يعبثون فيها ويسخرونها لفسادهم وأهوائهم ؛ كلا ، فلابد لدعاة الخير والإصلاح أن يتعاونوا في تنمية المشاريع الخيرية والاستثمارات الخالية من الشبهات ، ويوجهونها لدعم الخير وأهله ، إن هذا أمر لا يجادل فيه أحد من المصلحين ، ولا يتعارض هذا الفهم مع ما سبق من التحذير من الدنيا ؛ لأن الكلام الذي قيل هناك كان متوجهاً إلى من يعمل في هذه الدنيا لنفسه ، ويغري نفسه ويغالطها بالبذل في سبيل الله عز وجل والجهاد في سبيله سبحانه ، والأمر ليس كما يقول وقريب من هذا الصنف من يذم الدنيا لا زهداً فيها ورغبة في الآخرة ، وإنما لأنه لم يحصل عليها .

٦ـ الاحتجاج بيسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل المحرمة والأخذ بالرخص الشاذة للمذاهب :

إن من رحمة الله عز وجل علينا أن هدانا لهذا الدين القويم ؛ دين الإسلام الذي لا يقبل الله سبحانه من أحد ديناً غيره ، وجاءت شريعته الكاملة المطهرة لتحقق مصالح العباد وتحفظها ، وتدرأ عنهم المفاسد وتحميهم منها في الدنيا

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق (٧) ، باب : ما يحذر من زهرة الدنيا . . . (٦٤٢٥)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١).

والآخرة .

ولقد قامت هذه الشريعة الربانية على رفع الحرج والمشقة ، وعلى اليسر في أمورها كلها ، ولو تتبعنا أحكام هذه الشريعة لرأيناها قائمة على ذلك ، ولا مكان هنا للتفصيل ؛ إذ ليس الغرض الحديث عن القواعد الشرعية ومقاصد الشرع ؛ فهذا تفصيله يوجد في مظانه من كتب أهل العلم ؛ كالقواعد لابن رجب ، والموافقات للشاطبي وغيرهما .

وإنما المراد من إيراد هذه المقدمة في هذه الصورة الإشارة إلى أن القول بيسر الشريعة وسماحتها حق لا شك فيه ، ولكن الاحتجاج بهذا التيسير على التحلل من أحكام الشريعة والتحايل عليها واتباع الهوى في الأخذ بالرخص والغرائب الفقهية الشاذة ، التي لا تستند إلى دليل صحيح ؛ كل هذا باطل وتلبيس وتضليل يرفعه أهل الأهواء الذين يتبعون الشهوات ، ويلوحون به لتمرير فسادهم وشهواتهم ؛ يريدون بذلك تحلل المجتمع المسلم من أحكام الشريعة باسم التيسير وترك التشديد ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٢٧] .

ومن رحمة الله عز وجل أنه لم يكل مصالح العباد إلى أهواء البشر وشهواتهم ؛ بل وضع سبحانه شريعة كاملة مبرأة من الجهل والهوى ، ومبرأة من النقص والقصور؛ لأنها منه سبحانه اللطيف الخبير الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ولو أن تقرير مصالح العباد كان في أيدي البشر لحصل من ذلك شر وفساد كبير ؛ وذلك لما عليه البشر من الجهل والنقص والهوى والشهوة ، وهذا مشاهد في الواقع ؛ فالمجتمعات التي لا يحكمها شرع الله سبحانه وإنما تحكمها أنظمة البشر وقوانينهم نرى كم فيها

من الفساد والشر والظلم والاستعباد والضنك والضيق الذي تعج به الأرض والسماوات ، وتبرأ منه الوحوش في البريات ، وصدق الله العظيم : ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧١].

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« المقصد الشرعي في وضع الشريعة: إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً. والدليل على ذلك أمور:

أحدها : النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله والدخول تحت أمره ونهيه؛ كقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ** ﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١].

ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة كقوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ** . . إلى قوله: **وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة من الأحكام .

وقوله: ﴿ **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ [النساء: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق وبتفاصيلها على العموم ، فذلك كله

راجع إلى الرجوع إلى الله في جميع الأحوال والانقياد إلى أحكامه على كل حال وهو معنى التعبد الله .

والثاني: ما دل على مخالفة هذا القصد من النهي أولاً عن مخالفة أمر الله، وذم من أعرض عن الله وإبعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات والعذاب الآجل في الدار الآخرة، وأصل ذلك اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة؛ فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعده قسيماً له كما في قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وقال في قسيمه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] .

وقال : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣، ٤].

فقد حصر الأمر في شيئين : الوحي ؛ وهو الشريعة ، والهوى ؛ فلا ثالث لهما ، وإذا كان كذلك فهما متضادان ، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده، فاتباع الهوى مضاد للحق .

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

[الجاثية: ٢٣]

وقال: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

[المؤمنون: ٧١]

وقال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

[محمد: ١٦]

وقال : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤] .

وتأمل، فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولمتبعيه . وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال : ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه ، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التعبد للمولى .

والثالث : ما علم بالتجارب والمعتقدات من أن المصالح الدينية والدنيوية لا تحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى والمشي مع الأغراض لما يلزم في ذلك من التهارج والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح .

وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة ؛ ولذلك اتفقوا على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به حتى إن من تقدم ممن لا شريعة له يتبعها، أو كان له شريعة درست كانوا يقتضون المصالح الدنيوية بكف كل من اتبع هواه في النظر العقلي ، وما اتفقوا عليه إلا لصحته عندهم واضطراد العوائد باقتضائه ما أرادوا من إقامة صلاح الدنيا وهي التي يسمونها السياسة المدنية .

فهذا أمر قد توارد النقل والعقل على صحته في الجملة وهو أظهر من أن يستدل عليه .

وإذا كان كذلك لم يصح لأحد أن يدعي على الشريعة أنها وضعت على

مقتضى تشهي العباد وأغراضهم ؛ إذ لا تخلو أحكام الشرع من الخمسة : أما الوجوب والتحريم فظاهر مصادمتها لمقتضى الاسترسال الداخل تحت الاختيار، إذ يقال له: افعل كذا كان لك فيه غرض أم لا ، ولا تفعل كذا كان لك فيه غرض أم لا . فإن اتفق للمكلف فيه غرض موافق وهوى باعث على مقتضى الأمر أو النهي فبالعرض لا بالأصل .

وأما سائر الأقسام وإن كان ظاهرها الدخول تحت خيرة المكلف فإنما دخلت بإدخال الشارع لها تحت اختياره ، فهي راجعة إلى إخراجها عن اختياره . ألا ترى أن المباح قد يكون له فيه اختيار وغرض ، وقد لا يكون ، فعلى تقدير أن ليس له فيه اختيار بل في رفعه مثلاً كيف يقال إنه داخل تحت اختياره ؛ فكم من صاحب هوى يود لو كان المباح الفلاني ممنوعاً ؛ حتى إنه لو وكل إليه مثلاً تشريعه لحرمه كما يطرأ للمتنازعين في حق . وعلى تقدير أن اختياره وهواه في تحصيله يود لو كان مطلوب الحصول، حتى لو فرض جعل ذلك إليه لأوجبه .

ثم قد يصير الأمر في ذلك المباح بعينه على العكس، فيحب الآن ما يكره غداً وبالعكس ، فلا يستتب في قضية حكم على الإطلاق ، وعند ذلك تتوارد الأغراض على الشيء الواحد فينخرم النظام بسبب فرض اتباع الأغراض والهوى ؛ فسبحان الذي أنزل في كتابه ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١] اهـ»[1] .

إن الذين يتشدقون بالتيسير ويغالطون به بغير علم ولا هدى من الله سبحانه لو كان الأمر بأيديهم لعطلوا بأهوائهم كثيراً من أحكام الشريعة التي

(١) الموافقات :(٢/ ١١٦).

ينال المكلف فيها المشقة والضيق ، مع أن مآلها اليسر والسعادة في الدارين؛ فحمداً لله عز وجل أنه لم يكل أمر تقرير المشقة والحرج والعسر واليسر إلى أهواء البشر ، إذن لفسدت الأرض ومن عليها، ولعم الهلاك والظلم والشر كما هو الحال فيمن لا يحكمهم شرع الله.

لكن الله سبحانه الرحيم بعباده هو الذي يعلم ما يُصلح شئونهم، وييسر أمورهم ، ويعلم ما يشق عليهم وما لا يشق . إنه حكيم عليم ، ولنضرب على ذلك مثلاً ، قال تعالى : ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨] .

فمن دقائق التفسير في هذه الآية ما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير تعليقاً على هذه الآية ؛ إذ يقول : « ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال : ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ أي ضيق وشدة » اهـ .

من هذا التعليق ندرك أن الجهاد وإن كان فيه تكليف ومشقة على النفس لكن الله سبحانه شرعه تيسيراً للعباد ورفعاً للحرج عنهم ، نعم في الجهاد مشقة وضيق على المجاهدين ، لكن بالقياس إلى غاية الجهاد وهي أن يكون الدين كله لله سبحانه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

إذا قيست هذه الغاية وهذه التيسيرات ورفع المشقات الكبيرة والحرج الشديد عنهم والتي لا تتحقق إلا بالجهاد ؛ فإن الحرج القليل لا يساوي شيئاً ما دام أن الحرج العظيم والعنت الشديد الذي تعانيه البشرية في ظل عبودية البشر سيزول بالجهاد في سبيل الله ؛ الجهاد الذي لا يكون الدين كله لله إلا

به ، فماذا تساوي المعاناة عندئذ ، وماذا تساوي التضحيات ؟ إنها لا تساوي شيئاً إذا قيست بإسعاد الملايين من البشر في ظل الإسلام ، وبالفوز برضوان الله سبحانه في جنات النعيم .

إذن من خلال المثال السابق يتبين لنا كيف أن الله سبحانه شرع الجهاد لرفع الحرج ، بينما أهل الأهواء والشهوات يرون فيه حرجاً ومشقة ، ولا يذهبون إلى ما وراء هذا الحرج الظاهري .

والأمثلة في ذلك ـ غير الجهاد في سبيل الله ـ كثيرة ، وكلها تدل على أن الوسيلة التي يحكم بها على أن في هذا الأمر مشقة أو تيسيراً هي ما جاء عن الله سبحانه أو رسوله ﷺ ، ولا دخل لعقول البشر وأهوائهم في تحديد ذلك إلا ما كان منضبطاً في إطار مقاصد الشرع وقواعده .

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« وذلك أن مخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها ، وصعب خروجها عنه، ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم ، وكفى شاهداً على ذلك حال المحبين ، وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ما هو عليه حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال ، ولم يرضوا بمخالفة الهوى، حتى قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، وقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٤] وما أشبه ذلك .

ولكن الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبداً لله . فإذاً مخالفة الهوى ليست من المشقات المعتبرة في التكليف ، وإن كانت شاقة في مجاري العادات إذ لو كانت معتبرة حتى يشرع التخفيف لأجل ذلك لكان ذلك نقضاً لما وضعت الشريعة له ، وذلك باطل ، فما أدى إليه مثله . وبيان هذا المعنى مذكور بعد إن شاء الله»[1] .

بعد هذه النقول المتفرقة من كتاب الموافقات للشاطبي نعود إلى أولئك الذين يحتجون بيسر الشريعة وترك التشديد لتبرير أخذهم بالرخص من كل مذهب ؛ فنسأل هؤلاء القوم : ماذا تقصدون بالتيسير والتشديد؟

فإن كانوا يقصدون التحلل من كل ما تقترن به المشقة من الأحكام ولو جاء الدليل على مشروعيتها، فإن هذا هو التلبيس والتضليل ؛ حيث لم يكن رائدهم في ذلك هو الدليل ، وإنما هو الهوى والشهوة، لكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك ، وإنما يغطون أهواءهم وشهواتهم بشبهة التيسير ورفع الحرج، أو أن في المسألة قولاً ما لأحد العلماء .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

« وروى البيهقي عن الحاكم عن حسان بن محمد عن ابن سريج عن القاضي إسماعيل بن إسحاق قال : « دخلت يوماً على المعتضد فدفع إلي كتاباً فقرأته فإذا فيه الرخص من زلل العلماء ـ قد جمعها له بعض الناس ـ فقلت : يا أمير المؤمنين، إنما جمع هذا زنديق ، فقال : كيف ؟ قلت: إن من أباح المتعة لم يبح الغناء ، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو ، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر بتحريق ذلك

(١) الموافقات (٢/ ١٠٣).

الكتاب»[١].

ويرد الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات على من يحتج بوجود الخلاف في مسألة ما على إباحتها دون النظر إلى الدليل فيقول :

« (فصل) وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة . ووقع فيما تقدم وتأخر في الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف فإن له نظراً آخر ، بل في غير ذلك . فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع ، فقال : لم تمنع والمسألة مختلف فيها ؟ فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع . وهو عين الخطأ على الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمداً وما ليس بحجة حجة .

حكى الخطابي في مسألة البتع[٢] المذكور في الحديث عن بعض الناس أنه قال : إن الناس لما اختلفوا في الأشربة وأجمعوا على تحريم خمر العنب، واختلفوا فيما سواه حرمنا ما اجتمعوا على تحريمه وأبحنا ما سواه .

قال : وهذا خطأ فاحش ، وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول . قال : ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل للزم مثله في الربا والصرف ونكاح المتعة ؛ لأن الأمة قد اختلفت فيها . قال : وليس الاختلاف حجة ، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين

(١) البداية والنهاية (١١/ ٨٧) .

(٢) بكسر فسكون : نبيذ يتخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وفي الحديث : سئل عن البتع ، فقال : « كل مسكر حرام».

والآخرين . هذا مختصر ما قال .

والقائل بهذا راجع إلى أن يتبع ما يشتهيه ويجعل القول الموافق حجة له ويدرأ بها عن نفسه ؛ فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلاً لأمر الشارع وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه .

ومن هذا أيضاً: جعل بعض الناس الاختلاف رحمة للتوسع في الأقوال وعدم التحجير على رأي واحد، ويحتج في ذلك بما روي عن القاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مما تقدم ذكره[1] ، ويقول : إن الاختلاف رحمة ، وربما صرح صاحب هذا القول بالتشنيع على من لازم القول المشهور أو الموافق للدليل أو الراجح عند أهل النظر والذي عليه أكثر المسلمين ، ويقول له: لقد حجرت واسعاً ، وملت بالناس إلى الحرج ، وما في الدين من حرج ، وما أشبه ذلك ، وهذا القول خطأ كله وجهل بما وضعت له الشريعة . والتوفيق بيد الله » اهـ[2] .

وقبل الانتقال من هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى أمر مهم يتعلق بها، ألا وهو الاحتجاج بضغط الواقع وتغيره للتحلل من بعض الأحكام الشرعية؛ مرة بتأويل الأدلة وتحريفها عن مواضعها ، ومرة بحجة الضرورات ، ومرة بالاستناد على قاعدة: تغير الفتوى بتغير الحال والزمان والمكان والعوائد . وهذا كله من التلبيس والتضليل للتفلت من الشرع المطهر خطوة خطوة .

---

(١) راجع الموافقات (٤/ ٦٦).

(٢) الموافقات (٤/ ٧٨، ٧٩) .

ولو أن الذين يطرحون قاعدة الضرورات وتغيّر الفتوى كانوا من العلماء الأتقياء المشهود لهم بالصلاح ، والذين يعرفون ضوابط الضرورة وحدودها ، ويعرفون معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال ، لكان لهذا الطرح وجه واعتبار . وسواء أخطأ المجتهد في ذلك أم أصاب ؛ لأن قاعدة الضرورات وقاعدة تغير الفتوى بتغير الحال قاعدتان معتبرتان شرعاً بضوابطهما الشرعية .

وإن المتناول لهذه القواعد مع ما يستجد من مستجدات في الواقع إذا كان من أهل العلم وكان متجرداً لله عز وجل ، وطالباً للحق فإنه يوفق في الغالب إلى الحق والصواب ، ولو أخطأ فهو مأجور إن شاء الله تعالى على اجتهاده .

أما أن يأتي ملبس مضلل لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، بلا علم ولا تقوى من الله سبحانه ، ويريد أن يحتج بهذه القواعد للتحلل من الشرع ومسايرة الواقع ، فهذا مما يرفضه الشرع ويأباه ؛ لأن نهايته السير بأحكام الله عز وجل حسب أهواء الناس وشهواتهم ، وما ألفوه في واقعهم .

وما جاء هذا الدين إلا ليخرج الناس من ظلمات الشرك والأخلاق السيئة وما ألفوه في بيئاتهم وتوارثوه عن آبائهم ، إلى نور التوحيد والأخلاق الكريمة ، وهذا يحتاج بلا شك إلى جهد وصبر على مواجهة أعراف الناس وتقاليدهم وعدم اليأس من تغييرها ، ولو تُرك الناس وما ألفوه واعتادوه من أعراف جاهلية ، وما استجد في مجتمعاتهم من أخلاق هابطة لكن في ذلك من العنت والشقاء في حياتهم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه

هذا في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في معنى : ﴿ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُم ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] :

« ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك فيتمثل ابتداءً في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع ؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة ـ وما هي منها ـ بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس ، ما لم تعتصم منه بدين واضح ، وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة ، وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة ، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . . هذه العادات أو التقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً ، هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً ، وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة ، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم .

ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . . أزياء الصباح وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء . . والأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف . . . إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ ؛ من الذي يصنعه ، ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء ، وتقف وراءه شركات الإنتاج ، ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها!

ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ، ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات، ويطلقونها تضغط على الناس في صورة (عرف اجتماعي) ، فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفي عرف اجتماعي غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم ، متشابكة جذوره وفروعه ! إنه فعل الشياطين ؛ شياطين الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ،وتتماثل قوائمها وقواعدها .

وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ، ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم »[1] .

٧ـ التشهير بالدعاة والمصلحين واغتيابهم بحجة النصيحة والتحذير من الأخطاء :

عن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما قالا : قال

(١) الظلال (٣/ ١٢١٩).

رسول الله ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته** »[1] .

إن التنبيه على الأخطاء والمخالفات الشرعية أمر مطلوب إذا روعي في ذلك التجرد والانضباط بالشرع في معالجة الأخطاء .

وليس المقصود في هذه الصورة الحديث عن الغيبة وحرمتها ودورها في إثارة الشحناء والبغضاء ؛ فهذا كله معروف وموجود في مظانه من كتب أهل العلم ، وإنما المقصود من هذه الصورة هو الحذر من تزيين الشيطان وتلبيسه في إظهار الغيبة أو النميمة أو التشهير في قالب النصيحة والتحذير من الأخطاء والغيرة على دين الله وتعظيم حرمات الله عز وجل ؛ إن هذا هو الخطير في الأمر ؛ إذ لو أن الواقع في الغيبة أو النميمة أقر بذنبه واعترف بتقصيره واستغفر لذنبه لكان الأمر أهون ، أما أن يكابر ويلبس على نفسه وعلى الناس بأن قصده النصيحة للأمة وتحذيرها من الأخطاء وهو يعلم من نفسه غير ذلك من التشفي أو الحسد ، أو التهوين من شأن من وقع منه الخطأ وتنفير الناس عنه ؛ فكل ذلك من المغالطة وتلبيس الشيطان وتزيينه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين النصيحة والغيبة ، أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتّان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك في

---

(١) أخرجه أبو داود بنحوه - كتاب الأدب ٤٠ ، باب : في الغيبة (ح ٤٨٨٠) (٥/ ١٩٤) ، وأحمد في المسند واللفظ له : (٤/ ٤٢٠) ، وقال الألباني : حسن صحيح [صحيح أبي داود (٤٠٨٣) (٣/ ٩٢٣)] .

صحبته ومعاملته والتعلق به ، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم ، فقال : «**أما معاوية فصعلوك** ، **وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[1] ، وقال لبعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلد قومه فاحذره .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب »[2] .

وقال أيضاً :

« والفرق بين النصيحة والتأنيب ، أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ؛ فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه ، فيتلطف في بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضاً ، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الطلاق (٦) باب : المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها (١٤٨٠) : (٢/ ١١١٤)، ومالك في الموطأ ـ كتاب الطلاق (٢٣) ، باب : ما جاء في نفقة المطلقة (٦٧) (٢/ ٥٨٠).

(٢) الروح (٢٤٠).

صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقاً الذم والإهانة ، في صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ، ويطلب له وجوه المعاذير ؛ فإن غلب قال : ومن ضمنت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجباً ! كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ، وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب ، أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، ويقول : قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذيع عيوبك ولا يبينها في الناس ، والمؤنب ضد ذلك »[1] اهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى؛ تارة في قالب ديانة وصلاح؛ فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة ولا الكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ، أو رجل جيد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وإنما قصده استنقاصه وهضم لجنابه .

ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة؛ يخادعون الله بذلك كما

---

(١) الروح (٢٥٨).

يخادعون مخلوقاً ، وقد رأينا فيهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه . . . إلى أن قال : وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به ، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه ، ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر ؛ فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول، وقصده غير ما أظهر . والله المستعان »[1] اهـ.

ويتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن الفرق بين من كان غضبه لله عز وجل في تعظيمه لحرمات الله ، وبين من يريد تعظيم نفسه ونفاذ كلمته فيقول :

« وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله ، والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه ، وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه.

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس؛ فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ؛ فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله، فامتلأ قلبه بذلك النور؛ فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقي على قلبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه ، وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله

(١) الفتاوى (٢٨/ ٢٣٧).

وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً[١] ؛ هذا بخلاف الحمية للنفس؛ فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ؛ فإن الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ؛ فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان : حرارة من قبل النفس المطمئنة ، أثارها تعظيم حق الله، وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ»[٢] اهـ .

وبعد هذه النقولات القيمة لهذين الإمامين الجليلين والتي تنطق بما فيها؛ لم يبق عذر لمعتذر ، ولا مدخل لملبس ومغالط في إظهار حقده وتشفيه وحميته لنفسه في قالب النصح والديانة .

وكل إنسان أدرى بنفسه وقصده ، ولكن يبقى هناك بعض القرائن التي تكشف هذا اللبس والخداع في نفس المدعي للنصح والديانة منها :

١ ـ التشهير والتعيير بالمنصوح ؛ خاصة إذا كانَ من المصلحين وأهل العلم .

٢ ـ الظلم والتعدي وعدم الإنصاف مع المنصوح ، وبخسه حقه وإخفاء خيره وحسناته .

٣ ـ عدم التثبت والأخذ بالشائعات وتصيد الأخطاء والفرح بها .

٤ ـ تغليب سوء الظن وتفسير المقاصد بدون دليل وبرهان .

٥ ـ أن يكون قد عرف عنه الكذب وقلة الورع .

٦ ـ المداهنة للظالمين والركون إليهم .

---

(١) هذه الرواية لا يُدرى عمن أخذها أسلم، وأظنها عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحتها .
(٢) الروح (٢٣٤).

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

٨ـ التلبيس على الناس برفع لافتات إسلامية تخفي وراءها الكيد للدين وأهله :

إن من أخطر ما يهدد الأمة في عقيدتها وأخلاقها أن تعيش في جو من اللبس والتضليل والخداع، فلا ترى الحق بصورته المضيئة ، ولا الباطل بصورته القاتمة المظلمة ، بل قد يصل بها المكر والخداع إلى أن ترى غالبيتها الحق باطلاً والباطل حقاً، ويلتبس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين .

ومن أعظم الالتباس بين السبيلين أن يقوم المجرمون من أعداء المسلمين ـ سواء من الكفار الصرحاء ، أو المنافقين الدخلاء ـ برفع لافتات ظاهرها الإسلام ، ومحبة الدين والدعوة إليه ، وباطنها الكيد والمكر والخداع ، ويحصل من جراء ذلك أن ينخدع كثير من المسلمين بهذه اللافتات فينشغلون بها، ويثنون على أهلها بدلاً من فضحها وكشف عوارها وتعرية باطلها .

وعن خطورة التباس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين ؛ يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما ، كما قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه ؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها ـ وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية ؛ فإنها

منسوبة إلى الجهل . وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل - فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل ؛ هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا إليها وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله »[1] اهـ.

وقد قص الله سبحانه علينا في كتابه الكريم قصة نفر من المنافقين أرادوا خداع الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين برفع لافتة إسلامية على صرح من صروح النفاق ، لكن الله عز وجل فضحهم وفضح لافتتهم ، وعرَّى باطلهم؛ ليكونوا عبرة للمسلمين في وقتهم ، وعبر التاريخ الطويل لمن يأتي بعدهم ممن يرفع لافتة إسلامية يخفي وراءها خبثه ومكره ليكيد بها للإسلام والمسلمين في أي زمان ومكان .

وهذه القصة ذكرها الله سبحانه في سورة التوبة بما يعرف بمسجد الضرار؛ حيث أنزل فيها قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي

(١) الفوائد (١٠٩).

بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١١٠].

ولإيضاح هذه الصورة يحسن ذكر قصة هذا المسجد كما ذكرها أهل السير، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى:

« ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: « **إني على جناح سفر، أوحال شغل - أو كما قال ﷺ - ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه** ».

فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي، أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله، فحرقاه وهدماه، وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ... الآيات﴾ التوبة: ١٠٧-١١٠] »[1] اهـ.

(١) السيرة النبوية (٢/ ٥٣٠).

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على ما نزل في خبر هذا المسجد من الآيات ، فيقول :

« هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين ، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق! . . . وتتخذ في صور شتى كثيرة ، ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه ، يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح . . . ـ وذكر الآيات السابقة من سورة التوبة ـ ثم قال :

والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ؛ وكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة ، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين »[1] .

مما سبق من ذكر القصة والتعليق عليها يتبين لنا أهمية الوعي لمكر الأعداء ولافتاتهم البراقة الخادعة ، وأنه يجب على المسلم أن يكون على

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧١١) . (باختصار).

مستوى من الفطنة والحذر لألاعيب المجرمين وخدعهم، وألا تغلب عليه السذاجة والغفلة فينخدع مع المنخدعين ، وبالتالي فإنه قد يساهم بشكل أو بآخر في التضليل والتلبيس شاء أم أبى .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر، سليماً من إرادته . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لست بخب ولا يخدعني الخبّ . وكان عمر أعقل من أن يُخدع ، وأورع من أن يَخْدع»[1] اهـ.

والخب هو اللئيم المخادع ، وعمر رضي الله عنه لم يكن لئيماً ، ولكنه كان خبيراً بأخلاق اللئام .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن هذا الدين يغلب دائماً عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان . والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامناً في أن يكون له أعداء أقوياء وأعوان مدربون ، بقدر ما يمكن أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتحرجون في غير تحرج ، ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام ، بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة .

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هذه الأوضاع لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعاً .

وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً . . ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة ، بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ، عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ؛ ليغير الله ما بهم ، من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون .

وكل تحرُّج في غير موضعه، وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات؛ هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأيّة حركة إسلامية في الأرض جميعاً . وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذي أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات» اهـ[1] .

واللافتات المرفوعة اليوم كثيرة وماكرة ، أقتصر على بعض الأمثلة :

منها : ما يرفعه الذين بدلوا شرع الله عز وجل ورفضوا التحاكم إليه في بلادهم من لافتات يخدعون بها شعوبهم المسلمة، كأن يعلنوا الاحتفال بمولد الرسول ﷺ أوبالهجرة أو بالإسراء والمعراج ، وهم في حقيقة الأمر أعداء الرسول ﷺ ، وأعداء الهجرة، وأعداء الإسراء والمعراج . ومع ذلك يوجد من مغفلي الأمة من المسلمين من ينخدع بلافتاتهم التي يرفعونها باسم الدين ويثني عليهم بذلك .

ومن ذلك إقامة الذكرى السنوية لإحراق المسجد الأقصى المبارك ، فنرى هؤلاء المجرمين الخائنين لله سبحانه ورسوله ﷺ يخدعون المسلمين

بإحياء ذكرى حرق المسجد الأقصى كأنهم يهتمون بالإسلام وبالمسلمين ومقدساتهم وهم قد خانوا الله سبحانه من قبل بتنحية شريعته واستحلال محرماته ، وخانوا أمتهم وأوطانهم بعد ذلك بالتذلل والخنوع لليهود والنصارى .

ولقد أعجبني جملة قالها الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى في شريط مسجل حول هذا المعنى ؛ إذ يقول :

« إن إحراق المسجد الأقصى بل إحراق مساجد الدنيا كلها ليس أعظم جرماً من الاعتداء على شرع الله وحكمه وسلطانه في الأرض من قبل الأنظمة التي تتباكى على الأقصى وإحراقه » .

ومن اللافتات التي يخدعون بها الناس : إقامة المؤتمرات الإسلامية والمحافل الإسلامية والتي تأتي هذه الأنظمة المتنكرة لشرع الله عز وجل لترعاها وتدعو الناس إليها ، كل هذا من الخداع والتضليل الذي نربأ بالمسلمين ـ فضلاً عن الدعاة والمصلحين ـ أن ينطلي عليهم ، بل يجب التفطن إليه والسعي لكشفه وتعريته ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢].

* * *

المبحث الخامس
الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل

بعد أن تبين لنا خطورة لبس الحق بالباطل من خلال الصور السابقة في المبحث الماضي ، والتي هي على سبيل المثال لا الحصر ، وبعد ظهور ما ينتج عنها من الضلال والانحراف الذي يورث العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة ، بعد هذا البيان يحق لنا بل يجب علينا أن نسأل : كيف النجاة من هذا الخطر ، وما هي الأسباب الواقية من ذلك ؟

وللإجابة على ذلك نرجع إلى المبحث الثالث ؛ حيث ذكرت هناك أسباب التباس الحق بالباطل ، فمنها ينطلق العلاج؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها غالباً ، والله أعلم .

وقد مر بنا في مبحث أسباب الالتباس أن الأسباب لا تخرج عن ثلاثة أمور :

١ ـ شبهة تسببت في أخذ الباطل على أنه الحق . وأصل هذه الشبهة هو الجهل .

٢ ـ شهوة تسببت في أخذ الباطل وترك الحق عن ضعف وشهوة، مع اعتراف بالخطأ .

٣ ـ شهوة وشبهة نتج عنهما أخذُ الباطل وإظهاره في صورة حق عن هوى ومغالطة ، استناداً على شبهة يعلم صاحبها أنها لا تصلح للاستدلال .

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها بين يدي الأسباب الواقية من اللبس والتلبيس، يمكن تفصيل هذه الأسباب فيما يلي :

١- علم وبصيرة بدين الله عز وجل وشرعه :

وعلم وبصيرة بما يضاد دين الله عز وجل وشرعه ؛ فإذا تحقق هذان الأمران ؛ فإن الاستبانة لسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين قد تحققت ، وبهذا فلا مجال للشبهة هنا أبداً لانتفاء الجهل الذي منه تثور الشبهات المؤدية إلى اللبس والتلبيس .

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين ، فقال : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] .

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

وجمع بينهما أيضاً في قوله : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر: ٣] ، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات ، وجمع بينهما في قوله : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ** ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي : القُوى والعزائم في ذات الله ، والأبصار : البصائر في أمر الله، وعبارات السلف تدور على ذلك .

قال ابن عباس: « أولي القوة في طاعة الله ، والمعرفة بالله » .

وقال الكلبي : « أولي القوة في العبادة ، والبصر فيها » .

وقال مجاهد : « الأيدي : القوة في طاعة الله ، والأبصار : البصر في الحق » .

وقال سعيد بن جُبير : « الأيدي : القوة في العمل ، والأبصار : بصرهم بما هم فيه من دينهم » .

وقد جاء في حديث مرسل : « **إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[١] .

فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة ، والله المستعان»[٢] اهـ.

ويقول أيضاً : « ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه ، فيتلقى عنه حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ، وما يُثْبته لله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه ، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل»[٣] اهـ .

ويقول رحمه الله تعالى :

« والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان ، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ، وفيه حفص بن عمر العدني ، ضعفه الجمهور ، وانظر تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨) (٦/ ٢٤٣٨) .

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٧) .

(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٥) .

والأحوال والأموال والرجال . وإنما أتي أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله، ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[1] .

وقد مر قول عمر رضي الله عنه : « سوف تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

٢ـ الصبر وتقوى الله عز وجل :

فبالصبر وتقوى الله سبحانه تدفع الشهوة وينتصر الإنسان على هواه ؛ لأنه قد يحصل للإنسان العلم بدين الله عز وجل ويتبين له الحق من الباطل، ولكن إذا لم يكن لديه الصبر عن شهوات النفس والتقوى التي تحجزه عن مخالفة الصواب فإنه يضعف ويقع في المخالفة مع علمه بذلك .

أما إذا اجتمع العلم والبصيرة مع التقوى والديانة فإنه إذا بان الحق ولاح لم يكن أمام من هذه صفته إلا الإذعان والتسليم والانقياد ، وذلك لانتفاء الشبهة والشهوة في حقه ، وإلى هذا أشار ابن القيم رحمه الله تعالى في النقل السابق بقوله : « إن فتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر» اهـ .

ولكن إذا ضعف الصبر والتقوى، ووجدت الغفلة عن الآخرة والوقوف بين يدي الله عز وجل، وصاحب ذلك شيطان يزين ودنيا تتعرض بفتنها؛ فالغالب عدم السلامة ، ولكن المخالف للحق هنا إما أن يكون لديه بقية من

---

(١) الروح (٢٦٠).

تقوى وخوف من الله عز وجل فيعترف بذنبه ويستغفر منه ، ويتوب أو يكون ـ عياذاً بالله ـ قد رقّ دينه وسيطر عليه هواه ، فأخذ يلتمس مبرراً لباطله ، ويبحث هنا وهناك عن شبهة يظهر بها باطله ومخالفته في قالب الحق والموافقة لدين الله ؛ وهذا هو الخداع والتلبيس ، ولا علاج له إلا تقوى الله سبحانه ، واليقين بالرجوع إليه تعالى في يوم عصيب : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج: ٢] ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

نعم إنه لا يمنع من الوقوع في الباطل بعد العلم والبصيرة ، ولا يمنع من تلبيسه على الناس إلا الإيمان باليوم الآخر إيماناً جازماً ويقيناً صادقاً، وإن لم يتذكر العبد هذا اليوم ويحسب له حسابه فلن يفيده في ذلك العلم الذي اكتسبه ولم يعمل به .

فكم من عالم بالحق تنكب عنه وخالفه، أما إذا انضم إلى العلم والبصيرة الصبر والتقوى والخوف من الحساب يوم القيامة ، فإن الشهوة ستنقمع والهوى سيُغلب ، وعندها يزول اللبس والتلبيس والخداع والمغالطة في دين الله عز وجل .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده على المحتالين على شرع الله بالحيل الباطلة :

« فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال ، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكراً وخديعة من

الأقوال والأفعال ، وأن يعلم أن لله يوماً تكع[١] فيه الرجال ، وتنسف فيه الجبال ، وتترادف فيه الأهوال ، وتشهد فيه الجوارح والأوصال ، وتبلى فيه السرائر، وتظهر فيه الضمائر ، ويصير الباطن فيه ظاهراً ، والسر علانية ، والمستور مكشوفاً ،والمجهول معروفاً ، ويحصل ويبدو ما في الصدور ، كما يبعثر ويخرج ما في القبور ، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات ، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات ، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال ، وتسود وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال ، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون، وبدينهم كانوا يلعبون ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٣][٢] ا . هـ.

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال قوله تعالى : ﴿ **وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٦٩] :

« نعم ؛ إنها الدار الآخرة ، إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا، نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه

---

(١) تكع : أي تضعف وتجبن .

(٢) أعلام الموقعين (٣/ ٢١٤ ، ٢١٥).

الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ، إلا اليقين في الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون ، ويعفون ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون ،مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين»[1] اهـ .

وبعد ذكر السببين الرئيسين للوقاية من اللبس والتلبيس ، وهما البصيرة في الدين التي تدفع بها الشبهة ،والصبر والتقوى اللذان تدفع بهما الشهوة نذكر فيما يلي بعض الأسباب المساعدة لتثبيت السببين السابقين ، وهي مندرجة في كلمة (التقوى) ، ولكن لا بأس بالنص عليها للتنبيه على أهميتها والتذكير بها .

٣ـ محاسبة النفس ومجاهدتها وتحصينها بالذكر والدعاء والعمل الصالح :

حيث لابد للمسلم من محاسبة دائمة للنفس ،ومجاهدة لها لتطويعها لشرع الله عز وجل ، والحذر من مصائد الشيطان الذي لا يفتأ يوسوس

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٣٨٧).

ويزين لها الباطل ، فإن لم يتفقّد كل منا نفسه ويتعاهدها ويسد على الشيطان مداخله المتعددة ؛ فإن النفس تكون على حافة خطر في أن تنساق مع شهواتها وهواها ؛ فيحصل من جزاء ذلك اللبس والتلبيس ، والتضليل والمغالطة إما بعلم أو بجهل .

وإن مما يؤكد أهمية المحاسبة الدائمة واليقظة الشديدة للنفس ومساربها المتشعبة ؛ ما يحصل للكثير منا في يومه أو أسبوعه أو شهره من المغالطات والمعاذير الكاذبة والتبريرات الغامضة - سواء مع النفس أو مع الناس - ولكنها تكثر وتقل حسب التقوى وقوتها أو ضعفها في القلب . مع أنه يوجد من الدعاة والمصلحين نماذج فريدة في إخلاصها وصدقها وبعدها عن المداهنة والمغالطة والتلبيس ، نسأل الله لهم الثبات ، ونسأله سبحانه لنا جميعاً صدق المقصد في الأقوال والأعمال .

والآن نعرض لنموذج فريد من محاسبة النفس ، يقول ابن الجوزي رحمه الله :

« ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقلّ أن يقاربها إلا من يقع فيها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم وتحتمل الإباحة ، إذ الأمر فيها مردد ، فجاهدت النفس ، فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ، فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت فتركت كنت تاركاً حقيقة . ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرتني فيه الجواز ، وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثّر ذلك ظلمة في قلبي لخوف أن يكون محرماً . فرأيت أنها تارة تقوى عليّ بالترخيص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا ترخصت لم آمن أن

يكون ذلك الأمر محظوراً ، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب .

فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدّري أن هذا الأمر مباح قطعاً ، فو الله الذي لا إله إلا هو لا عدت إليه . فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها ؛ لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير ، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز ، والله الموفق »[١] .

ولقد بلغ من خطر النفس والحذر من شرها أن كان النبي ﷺ قلما يخطب خطبة إلا واستعاذ بالله من شرها، وذلك فيما يعرف بخطبة الحاجة ، والتي في مطلعها : « **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**»[٢] .

ولذلك ينبغي الإكثار من الأدعية التي يستعاذ فيها من شر النفس من مثل قوله ﷺ : « **اللَّهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري**»[٣] ، وقوله ﷺ : « **أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه** »[٤] وغير

---

(١) صيد الخاطر : ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الترمذي ـ كتاب النكاح (١٦) ، باب : خطبة النكاح (١١٠٥) (٤/ ٦١) ، وأبوداود كتاب النكاح (٣٣) باب : في خطبة النكاح (٢١١٨) (٢/ ٥٩١) ، وأخرجه أيضاً غيرهما ، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١/ ٣٢٠، ٣٢١)] وهو جزء من خطبة الحاجة .

(٣) أحمد في المسند (٤/ ٤٤٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥١٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤) أحمد في المسند (٢/ ٢٩٧) ، والترمذي ـ كتاب الدعوات (١٤) باب : ما يقال في الصباح والمساء (٣٣٨٩) (٩/ ١٠٤) ، وأبو داود ـ كتاب الأدب (١١٠) باب : ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٧)(٥/ ٣١٠، ٣١١) ، وصححه أحمد شاكر [التعليق على المسند (٧٩٤٨) (١٥/ ١١٠)] ، وصححه أيضاً الألباني [صحيح الترمذي (٢٧٠١)(٣/ ٢٤٢)] .

ذلك من الأدعية التي تحذر من النفس وشرها وشهواتها ومساربها التي يدخل منها الشيطان إليها .

ولما كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وهو الذي يزين للنفس شهواتها وشرورها جاء الحث على الاستعاذة من شره وشر وساوسه ؛ كما جاء في سورة الناس : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٦]، وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وأمثال هذه الأدعية التي يستعاذ بها من شر النفس والشيطان كثيرة في الكتاب والسنة ، وهي من أقوى الأسباب الواقية من الانحراف واللبس والتلبيس .

ومن الأسباب القوية التي يتحصن بها من الشيطان ووساوسه ذكر الله عز وجل في أحوال اليوم والليلة ؛ فكلما كان اللسان رطباً بذكر الله تعالى والقلب يواطئه في ذلك ، كان الشيطان بعيداً ولا يستطيع اقتحام الحصن ؛ لأن ذكر الله سبحانه يحرقه ويمنعه من الدخول ، ولكن ما إن يغفل العبد عن ذكر الله تعالى حتى يكر مرة أخرى للوسوسة ؛ فهذا دأب الشيطان : في كر وفر على القلب ، فكلما ذكر العبد ربه خنس ، وإذا غفل وسوس .

ومن الأسباب الواقية من التباس الحق بالباطل مجاهدة النفس في عمل الصالحات ، والإكثار منها من غير إفراط ولا تفريط كما جاء في الحديث القدسي والذي منه : « **وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته**

عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . الحديث »[1] ، فمن كان يسمع ويبصر ويمشي ويبطش بنور الله وهداه ؛ فإنه لن يخطئ الحق أبداً .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وبالضد من ذلك فإن كثرة الذنوب من أسباب الضلال والزيغ ؛ قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف: ٥] .

وأخيراً، فإن دعاء الله عز وجل واللجوء إليه سبحانه وسؤاله الهداية للحق والعمل به من أقوى الأسباب الواقية من اللبس والضلال ، كما جاء في استفتاح صلاة الليل : « **اللَّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** »[2] .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وشهدتُ شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجأ إليه ، واستنزال الصواب من عنده ، والاستفتاح من خزائن رحمته ؛ فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مداً، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ .

---

(١) أخرجه البخاري ـ كتاب الرقاق (٣٨) ، باب: التواضع (٦٥٠٢) [فتح(١١/ ٣٤٨)] .

(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين وقصدها (٢٦) باب: الدعاء في صلاة الليل . . . (٧٧٠) (١/ ٥٣٤).

ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق ، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق ؛ فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق ، فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1] .

٤ـ مصاحبة أهل العلم والورع :

ومما لا شك فيه ولا جدال أن الجليس يتأثر بجليسه وصاحبه ، سواءً في الخير أو الشر ؛ وذلك عن طريق المؤانسة والمشابهة والقدوة ، وعليه ؛ فإن من الأسباب المانعة من الانحراف ولبس الحق بالباطل ؛ الجلوس مع أهل العلم والتقوى ، ومصاحبتهم ، ومشاورتهم ؛ لأنه بالعلم الذي عندهم تحترق الشبهات ، وبالتقوى والورع لدينهم تحترق الشهوات ، وبذلك يُسد على الشيطان البابان الرئيسان اللذان يدخل منهما ليلبس على النفس ويزين لها التلبيس .

والعكس بالعكس؛ فما إن يصاحب المرء أهل الجهل والجدال ممن لم يؤتوا حظاً من التقوى والورع إلا ويتأثر بهم وينطبع بأخلاقهم وتشتبه عليه الأمور لضعف العلم والبصيرة ، أو يتعمد ترك الحق وتعميته على الناس لضعف التقوى وعدم الصبر على الشهوات .

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « لولا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام ، كما ينتقى أطايب الثمر » ، وقال أيضاً : « اقتربوا من أفواه المطيعين واستمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة » .

---

(١) أعلام الموقعين (٤/ ١٧٨) .

ولعل مما يدخل في هذا السبب الإكثار من قراءة أخبار أهل العلم والتقوى والجهاد من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء ، والتابعين لهم بإحسان ؛ ففيهم الأسوة والقدوة والخير كله .

٥ـ الحذر من الدنيا وعدم الركون إليها :

إن من أعظم أسباب الانحراف عن الحق والوقوع في الشبهات والمخالفات هذه الدنيا الخسيسة الغرارة ؛ فكلما انفتحت على العبد كثرت شبهاتها وانساق مع شهواتها المختلفة ، وعندما يرد ذكر الدنيا ؛ فإنه يُقصد بها كل ما أشغل عن الآخرة ، من متعها المختلفة ، والتي أجملها الله عز وجل في قوله سبحانه : ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤] .

والانغماس في الدنيا وترفها وملذاتها تنتج عنه الغفلة عن الآخرة ، وتشتت الذهن والقلب ، وإعمال الفكر في الاستزادة منها والخوف على فواتها ؛ وهذا يؤدي إلى قسوة القلب ورقة الدين .

ومن هنا تبدأ النفس في الاستجابة لتزيين الشيطان وتثور الشبهات والشهوات في القلب ، فينشأ منهما الكذب والتدليس والتلبيس والطمع والجشع ، وخاصة في مثل عصرنا الذي نعيش فيه ، والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

ولذا كان من الأولى بمن أراد لنفسه السلامة من الدنيا وشبهاتها

وشهواتها أن يتخفف منها قدر الاستطاعة ، وأن يرضى منها بالقليل ؛ لأن هناك تناسباً طردياً ـ وخاصة في زماننا هذا ـ بين التكثر من أمور الدنيا وكثرة الوقوع في الشبهات والشهوات المؤدية إلى التدليس والتلبيس .

٦ ـ النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبيس والتدليس عليها :

إن الشعور بواجب النصح للأمة يقتضي من المسلم وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل أن يبين الحق لأمته ويعري الباطل ويكشفه لها ، ولا يجعله ملتبساً عليها فتضلّ ؛ لأن الذي يرى أمته تُضلَل ويلبَس عليها دينُها فتعيش في عماية من أمرها ، ثم يتركها وهو يعلم الحق من الباطل ؛ إن من هذا شأنه يعتبر خائناً لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله عز وجل سائله يوم القيامة عن علمه فيم عمل به .

قال ﷺ : « **الدين النصيحة** . قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[1] .

وهذا فيمن رأى التضليل والتلبيس فلم يحذر منه ، ولم يكشفه للناس ، فكيف بمن باشر التلبيس والتضليل بنفسه عياذاً بالله ؟ إن هذا بلا شك أكثر خيانة من سابقه ، وإن وزر وضلال من ضلله بتلبيسه هذا سيحمله فوق ظهره يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزار من ضللهم شيء .

والحاصل أن شعور المسلم بإثم وعاقبة التلبيس أو السكوت عليه من أقوى الأسباب المانعة من الوقوع فيه ؛ إن كان في القلب بقية من حياة وخوف من الله سبحانه والدار الآخرة ؛ لأن من كانت في قلبه المحبة الحقيقية

---

(١) أخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان (٢٣) ، باب : بيان أن الدين النصيحة (٥٥) (١/ ٧٤) .

لهذا الدين وأهله لا يمكن أن يرى التضليل والتلبيس من المفسدين المنافقين ، ثم يرضى لنفسه السكوت والوقوف موقف المتفرج ، بل لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى يساهم قدر استطاعته في إبانة سبيل المؤمنين وإسقاط اللافتات الزائفة عن سبيل المجرمين وتعرية باطلهم وخداعهم ، كما مر بنا في الصورة الثامنة من صور التلبيس ، وعندها تعرف الأمة من توالي ومن تعادي ، وعندها تتميز الصفوف ، ويتميز المؤمن من المنافق ، وكل هذا يحتاج إلى تضحيات باهظة ، لكنها رخيصة في سبيل الله عز وجل ؛ لأن نصر الله عز وجل الموعود لا يتم بدونها .

* * *

وبعد

فهذا ما يسره الله عز وجل في هذه العجالة حول هذا الموضوع الهام الذي يمس المسلم في عقيدته وأخلاقه ومجتمعه ، ولا أزعم أني أحطت بجوانبه كلها ، ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع والتذكير به ؛ لعل بعض علمائنا الكرام وإخواننا الدعاة يكملون ما نقص منه ، ويعدلون ما اعوجّ منه .

وما ذكرته من صور التلبيس ذكرته على سبيل المثال لا الحصر ؛ فالصور كثيرة كثيرة ، خاصة في زماننا هذا الذي قل فيه العلم والورع ، ونجم فيه الجهل والنفاق .

وفي خاتمة هذا البحث أوصي نفسي الأمارة بالسوء وأوصي إخواني المسلمين بأن يتفقد كل منا نفسه ، ويبحث عن هذا الداء الخطير فيها فإذا وجدنا شيئاً من ذلك فعلينا التوبة الصادقة منه ، ولنبادر بقطع جذوره قبل أن يستفحل ، ولا نسوف في ذلك أبداً ؛ لأن التسويف وطول الأمل من عمل الشيطان وتلبيسه ، وأرى بهذه المناسبة نقل كلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل ليكون ختام المسك لهذا البحث، قال رحمه الله :

« كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول له : لا تعجل وتمهل في النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه

الإنابة، كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوفه ، وكم من ساع إلى فضيلة ثبطه ، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه ، فقال : استرح ساعة. أو انتبه العابد في الليل يصلي ، فقال له : عليك وقت .

ولا يزال يحبب الكسل ،ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم ؛ والحزم تدارك الوقت وترك التسوف والإعراض عن الأمل، فإن المخوف لا يؤمن ، والفوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير في خير أو ميل إلى شر طول الأمل . فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير إلا أنه يعد نفسه بذلك .

ولا ريب أنه من أمل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً ،ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جَدَّ، وقد قال ﷺ : «صل صلاة مودع »[1] ، وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) فإنها أكبر جنود إبليس.

ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل في الحال، فاغتبط المحترز ، واعتبط الآسف المفرط ؛ فهذا مثل الناس في

(١) رواه أحمد (٥/ ٤١٢)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٧٧٦.

الدنيا؛ منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة .

فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ؛ فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة ، وأقام له كميناً ، ونحن نسأل الله عز وجل السلامة من كيد العدو وفتن الشيطان وشر النفوس والدنيا ، إنه قريب مجيب ، جعلنا الله من أولئك المؤمنين »[1] اهـ .

وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل ، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) تلبيس إبليس ص٤٥٢، ٤٥٣ .

٦ ـ الخير والنماء والبركة ١١٣
٧ ـ تفريج الشدائد وكشف الكربات والنصر على الأعداء ١١٤
٨ ـ غفران الذنوب وتكفير السيئات ١١٦
٩ ـ الهداية للحق دلالة وانقياداً ١١٧
١٠ ـ الزهد في الدنيا والتزود للآخرة ١٢٢
١١ ـ حسن الخاتمة ١٢٢
الخاتمة ١٢٥
١ ـ إلى علماء الأمة وطلاب العلم فيها ١٢٥
٢ ـ إلى دعاة الأمة ومجاهديها ١٣٠
٣ ـ إلى المربين في هذه الأمة ١٣٦
٤ ـ إلى الإعلاميين في هذه الأمة ١٤٠
وبعد ١٤٣

الرسالة السابعة
﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾

المقدمة ١٤٧
المبحث الأول : أهمية الموضوع ١٥٣
المبحث الثاني : تعريفات : ١٥٩
١ ـ اللبس والتلبيس ١٥٩
٢ ـ الأغاليط والمغالطات ١٦١
المبحث الثالث : أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل ١٦٥

كل انحراف أو ضلال سببه فتنة الشبهات أو فتنة الشهوات أو مجموعهما ١٦٥
وسائل لبس الحق بالباطل : ١٧٠
١ ـ التأويل واتباع المتشابه ١٧٠
٢ ـ كتمان الحق وإخفاؤه ١٧٧
٣ ـ تحريف الأدلة عن مواضعها ١٨٤
المبحث الرابع : صور من لبس الحق بالباطل ١٩١
١ ـ الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله والمستحلة لما حرمه سبحانه بآثار عن السلف : (كفر دون كفر) ١٩١
٢ ـ الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل والمهانة ١٩٦
٣ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن ٢٠١
٤ ـ المداهنة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح ٢١٣
٥ ـ الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن الناس وإنفاق المال في وجوه الخير ٢٢٠
٦ ـ الاحتجاج بيسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل المحرمة والأخذ بالرخص الشاذة ٢٢٣
٧ ـ التشهير بالدعاة المصلحين واغتيابهم بحجة النصيحة